نفحات بيانية من

دعاء الصباح

لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

ISBN 978-9922-9465-4-2

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية ببغداد ٢٨٣٤ لسنة ٢٠٢٠

مصدر الفهرسة: IQ-KaPLI ara IQ-KaPLI rda

رقم التصنيف LC : BP194.3 .S29 2021

المؤلف الشخصي: الصيمري، ميثاق علي – مؤلف ؛ تقديم : السيد نبيل الحسني .

العنوان: نفحات بيانية من دعاء الصباح لأمير المؤمنين علي ابن ابي طالب عليه السلام/ بيان المسؤولية: الدكتور ميثاق علي الصيمري.

بيانات الطبع: الطبعة الاولى.

بيانات النشر: كربلاء، العراق : العتبة الحسينية المقدسة، مؤسسة علوم نهج البلاغة، ٢٠٢١ / ١٤٤٢ للهجرة.

الوصف المادي: ١٢٠ صفحة ؛ ٢٤ سم.

سلسلة النشر: (العتبة الحسينية المقدسة ؛ ٨٦٠).

سلسلة النشر: (مؤسسة علوم نهج البلاغة ؛ ١٩٥).

سلسلة النشر: (سلسلة الدراسات والبحوث العلمية، وحدة فقه اللغة وفلسفتها - اللسانيات ؛ ٢٤).

تبصرة ببليوجرافية: يتضمن هوامش، لائحة المصادر (الصفحات ١١٣-١١٦).

مصطلح موضوعي: علي بن أبي طالب (عليه السلام) الامام الاول، ٢٣ قبل الهجرة-٤٠ للهجرة – دعاء.

مصطلح موضوعي: دعاء الصباح – شرح.

مصطلح موضوعي: اللغة العربية – بلاغة.

اسم هيئة اضافي: العتبة الحسينية المقدسة (كربلاء، العراق)، مؤسسة علوم نهج البلاغة، جهة مصدرة.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة

سلسلة الدراسات والبحوث العلمية (٢٤)
وحدة فقه اللغة وفلسفتها - اللسانيات

نفحات بيانية من دعاء الصباح الشريف لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

تأليف

د. ميثاق علي الصيمري

إصدار
مؤسسة علوم نهج البلاغة
العتبة الحسينية المقدسة

جميع الحقوق محفوظة

العتبة الحسينية المقدسة

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

العراق - كربلاء المقدسة -مجاور مقام علي الأكبر (عليه السلام)
مؤسسة علوم نهج البلاغة
الموقع الألكتروني: www.inahj.org
الإيميل: Inahj.org@gmail.com
موبايل: ٠٧٨١٥٠١٦٦٣٣ - ٠٧٧٢٨٢٤٣٦٠٠

تنويه:

إن الأفـكار والآراء المذكورة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر العتبة الحسينية المقدسة .

تخلي العتبة الحسينية المقدسة مسؤليتها عن أي انتـهاك لحقوق الملكية الفكرية .

الإهداء

إلى الدماء التي سالت على أرض المقدسات . .

إلى كلّ من أطفأ شمعة عمره من أجل أن يشعل شمعة حياتنا . .

إلى القلوب التي نبضت بحب تراب هذه الأرض الطاهرة . .

إلى الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم في طريق علي والحسين . .

أهدي هذا الجهد المتواضع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤسسة:

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاها، والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين محمد وآله الطاهرين.

أما بعد:

فلم يزل كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) منهلاً للعلوم من حيث التأسيس والتبيين ولم يقتصر الأمر على علوم اللغة العربية أو العلوم الإنسانية فحسب، بل شمل غيرها من العلوم التي تسير بها منظومة الحياة وإن تعددت المعطيات الفكرية، إلا أن التأصيل مثلما يجري في القرآن الكريم الذي ما فرط الله فيه من شيء كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، كذا نجد يجري مجراه في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾، غاية ما في الأمر أن أهل الاختصاصات في العلوم كافة حينما يوفقون للنظر في نصوص الثقلين يجدون ما تخصصوا فيه حاضراً وشاهداً فيهما، أي في القرآن الكريم وحديث العترة النبوية (عليهم السلام) فيسارعون وقد أخذهم الشوق لإرشاد العقول إلى تلك السنن والقوانين والقواعد والمفاهيم والدلالات في القرآن الكريم والعترة النبوية.

من هنا ارتأت مؤسسة علوم نهج البلاغة أن تتناول تلك الدراسات العلمية المختصة بعلوم نهج البلاغة وبسيرة أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وفكره ضمن سلسلة علمية وفكرية موسومة بـ(سلسلة الدراسات والبحوث العلمية) التي يتم عبرها طباعة هذه الكتب وإصدارها ونشرها في داخل العراق وخارجه بغية إيصال هذه العلوم إلى الباحثين والدارسين وإعانتهم على تبين هذا العطاء الفكري والانتهال من علوم أمير المؤمنين علي (عليه السلام) والسير على هديه وتقديم رؤى علمية جديدة تسهم في إثراء المعرفة وحقولها المتعددة.

وما هذه الدراسة التي بين أيدينا إلا واحدة من تلك الدراسات التي وفق صاحبها للإضاءة على واحد من الأدعية المأثورة عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، ألا وهو دعاء الصباح، مبينا أهمية هذا الدعاء، ومحللا لفقراته، بدءًا من مفاتيح الإجابة للدعاء ومن ثم قرع باب الرحمة الإلهية، وصولا إلى ذلك الباب المفتوح المؤدي إلى الفلاح، فجزى الله الباحث عن عمله هذا خير جزاء المحسنين، والحمد لله رب العالمين.

السيد نبيل الحسني
رئيس مؤسسة علوم نهج البلاغة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ
دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا
بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ

صدق الله العلي العظيم

سورة البقرة: (١٨٦)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله الذي جعل الحمد ثمنا لنعمائه ومعاذا من بلائه ووسيلة إلى جنانه و سببا لزيادة إحسانه و الصلاة والسلام على رسوله الأمين على التنزيل نبي الرحمة و إمام الأئمة و سراج الأمة، و على أهل بيته مصابيح الظلم و عصم الأمم لاسيما أمير المؤمنين ويعسوب الدين وخير الخلق بعد رسول رب العالمين.

إنّ الدارسين للتراث اللغوي لم يكونوا يتناولون في دراساتهم المستوى الاعتيادي للكلام، ولم يكن يشدهم سوى الكلام البليغ، الذي له قابلية التأثير في المتلقي. وإنّ النصوص التي يراد منها التأثير في المتلقي على كثرتها وتفاوتها في القيمة الإبداعية تنقسم على قسمين: أولهما: نصوص قيلت وكان الدافع وراءها هو الخروج بقطعة فنية مؤثرة حاول مبدعها أن يلتمس لها كل ما يتوفر في النص الإبداعي من مظاهر الجمال اللفظي والمعنوي. وثانيهما: نصوص قيلت ولم يكن الدافع وراءها ما سبق، بل كان الدافع الحقيقي وراءها إيصال المعاني وإحداث التأثير في المتلقي، وغالبا ما تقال ارتجالا. وهي نصوص غالبا ما تكون خالية من مظاهر الصنعة ويغلب عليها الطبع. وهو ما توفر في دعاء الصباح لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

وعندما نطالع بعض ما كتبه الباحثون وأصحاب الأقلام، ممن عرضوا لكلمات الإمام علي عليه السلام، أو كتبوا في شخصية الإمام، نجد أنّهم قد حاروا في وصف أسلوبه، وطريقته في إنتاج النصوص، وما انماز به من دقة في وصف الأحداث والتعبير عنها، باختيار أجود التعابير والقوالب القولية في أداء المعاني، فقد استهوتهم روائعه، وسحرتهم أساليبه وتعبيراته؛ فوصفوه بما يدل على بعد أثره فيهم، وإعجابهم بما انطوت عليه شخصية مبدعه، من القدرة الفائقة على نظم النصوص، بأسلوب بلاغي جذاب، يأخذ بالألباب والعقول، ويؤثّر في النفوس.

إنّ فرادة الإمام علي (عليه السلام) في أسلوبه جعلت كثيرا من الباحثين يولون كلامه عناية كبيرة باستبيان أسرار التعبير واستكشاف خبيئات المعاني فيه، والانتهال من عطائه في كل الميادين، وهذا هو السبب الذي دعا الباحث إلى البحث في دعاء الصباح .

إن هذه الدراسة محاولة متواضعة للكشف عن الدلالات البيانية في دعاء الصباح لأمير المؤمنين (عليه السلام) والاقتراب من مراداته في مناجاته مع الله عز وجل.

أهمية البحث: تنبع أهمية البحث من أن كلام الإمام في دعاء الصباح ينطوي على مضامين عالية قد سبكت بلغة بليغة وبأسلوب انماز بروعة الأداء ورصانة التعبير، ودقة اختيار الألفاظ والتراكيب بما ينسجم ورؤية الإمام عن الكون والوجود.

مشكلة البحث: تحاول هذه الدراسة الإجابة عن السؤالين الآتيين:

- ما السر الذي جعل كلام الإمام علي بن أبي طالب فوق كلام المخلوق دون كلام الخالق كما وصفه بعض الدارسين؟

- ما الدلالات والمعاني التي تختبئ خلف كلمات الدعاء؟

منهجية البحث: قامت الدراسة على المنهج التحليلي: وذلك في الوقوف على فقرات الدعاء ومحاولة الكشف عن دلالاتها.

خطة البحث: اقتضت طبيعة الدراسة أن تكون في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو الآتي: كان التمهيد مدخلا تعريفيا بموضوع الدعاء وأهميته، وكانت المباحث الثلاثة في تحليل فقرات الدعاء ومحاولة الوقوف على الدلالات التي أرادها الإمام (عليه السلام) في مناجاته.

وفي نهاية المطاف كانت خاتمة البحث في النتائج التي توصل إليها البحث.

وأجدني في هذا الحال وأنا أتعرض لدراسة دعاء الصباح لأمير البيان علي بن أبي طالب (عليه السلام) أقف أمام طود عظيم يصعب تسلقه على مبتدئ مثلي، ولكنني استعين بربي أن يوفقني لسبر غور هذا البحر العميق، وإن لم أكن بارعا في الغوص، لعلي أخرج منه ببعض الدرر، لتنفعني في عاجل دنياي وفي آجل آخرتي، إن ربي سميع عليم .

الباحث ..

التمهيد

ـ أهمية الدعاء وقيمته في الإسلام:

قال الله سبحانه في كتابه الكريم ﴿وَإذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة/ ١٨٦]، نلمس في هذه الآية أسلوبا غاية في الرقة و اللطافة يداعب مشاعر المتلقين ويخترق شغاف قلوبهم ويستمكن منها ليعالج موضوع الدعاء، ولتبين أهميته في حياة الإنسان في علاقته بربه وارتباطه بعقيدته. فالرب سبحانه قريب من عباده يفيض عليهم برحمته وعطفه، بيد أن السؤال يتوجه إلى العبد هل هو قريب من ربه؟!

فالله الذي أودع الإنسان في رحم أمه جنيناً ثم أخرجه إلى النور من ظلمات ثلاث ثم إذا به وهو يفتح عينيه على الدنيا يجد مائدة الوجود الحافلة بكل النعم المادية والروحية، والكائنات من حوله مسخرة له ثم بعث له الأنبياء والرسل من أجل هدايته وإرشاده إلى طريق السعادة في الدارين، بشرايع وأحكام وقوانين تنظم حياته وتسير به في طريق مستقيم نحو الآخرة، ولطف به بأن جعل من بعدهم الأوصياء أعلاما للهداية يدلونه إلى معين الخير والسعادة، فالله سبحانه هو الذي يرعى الإنسان ويتكفل بكل ما يحتاج إليه رحمة به وإحسانا إليه.

وعند التأمل في الآية الشريفة نتلمس فيها تلك الرعاية الإلهية والحنان من خلال ضمير المتكلم (الياء) في كلمة (عبادي) وهو سبحانه يصرح بذلك القرب من عباده والمحبة لهم من خلال كلمة (قريب) فهو يسمع دعاءهم ويعلم نوازعهم ويحيط بشؤونهم وشجونهم، لذلك يوجه لهم تلك الدعوة المفتوحة في أن يستجيبوا لدعوته لهم على لسان رسله وأنبيائه وأوليائه عندما يدعونهم لما يحييهم ويخلدهم ويعلو شأنهم من الإيمان بوحدانيته واتباع الشرائع التي أرشدهم للسير عليها.

ومن ذلك ما أرشدهم إليه بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر/ ٦٠]، في هذه الآية نواجه أسلوبا يختلف عن سابقه في الآية السابقة، ففي هذه الآية نواجه أسلوب الحزم الذي يجعل من موضوع ممارسة الإنسان الدعاء أو عدم ممارسته فيصلا بين الاعتراف بالعبودية لله جل شأنه أو التمرد عليها، ويوحي للعبد أنّ ذلك هو الخط الفاصل بين الإيمان والكفر، وبين الجنة والنار. فقد أمر الله عباده بالدعاء ليجسدوا العبودية له ويعبروا عن حاجتهم الدائمة إليه، بكلمات خاشعة تمتزج بالدموع وقلب كسير، ونفس تعي بانها لاشيء ولا قيمة لها في الوجود في مقابل وجود الواحد الأحد. فالدعاء هو التعبير الكامل الذي يجسد حالة الإنسان المتواضع لسيده و يحطم روح الغرور والتكبر الذي يبتلى به بعضهم، فهو إظهار الحاجة في رحاب من لا يحتاج إلى أحد، وهو التعبير عن الخشوع والانكسار والخضوع في رحاب الملك القدوس العزيز الجبار المتكبر القوي، وهو التعبير عن الفقر والمسكنة في حضرة الغني المطلق

ومالك الوجود بأسره.

اذن للدعاء أهمية قصوى في حياة الإنسان لأنه يعد الأداة المثلى للارتباط بالله عز وجل، ومن خلاله تتدفق الرحمة الإلهية نحو الإنسان، ويمكن أن نتبين تلك الأهمية في الآية الكريمة ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُم﴾ [الفرقان/ ٧٧]، إذ يفهم منها أنّ رعاية الله لعباده تكون بمقدار ارتباطهم به وخضوعهم لسلطانه وتذللهم في طلب الرحمة والعون منه من خلال الدعاء؛ لما تقدم من أنّ الدعاء هو التعبير الحي عن شعور الإنسان بحاجته الدائمة إلى الله في جميع أموره، واعترافه الخاضع بصفة العبودية التي تتمثل بالإحساس بالارتباط العميق بالله والفناء فيه فلا يرى لنفسه وجوداً بجنب وجوده تبارك وتعالى؛لهذا ورد في الحديث أنّ (الدعاء مخ العبادة)[1] لأنه التعبير الحي عن معنى العبودية والخضوع والخشوع الذي يتمثل في العبادة، وبدونه تصبح العبادة جسدا لا روح فيه، وبذلك يخرج الدعاء عن كونه طقوسا تقليدية يمارسها الإنسان بدون فهم ووعي.

هذا المفهوم من معنى الدعاء هو الذي جعل له الأهمية والقداسة في كل الأديان؛ لأنه يجسد الإيمان الواعي بالله سبحانه. وهو سلاح الأنبياء والصلحاء في تجاوز معضلات الحياة وصعوباتها، فينقل لنا القرآن الكريم حالات الأنبياء في انقطاعهم إلى الله وابتهالهم إليه في كل محطات حياتهم كأسلوب عملي يوحي لنا بقيمة هذه العبادة في علاقة العبد بربه. فقد كانت قلوبهم تنبض بحب الله وتغتسل بالدعاء. والكلمات المقدسة تنساب

(١) وسائل الشيعة: الحر العاملي: ٢ / ٢٧ .

على ألسنتهم وتخرج من أفواههم فتراهم خاشعين في رحاب الرب الجليل خاضعين في حضرته. فهم يعتبرون الدعاء منطلقا للتكامل وتزكية النفس .

ـ الدعاء إعلانٌ لحالة الارتباط باللّه في كل الأحوال:

من وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر قال: (يا أبا ذر ألا أعلمك كلمات ينفعك الله عز و جل بهن؟ قلت بلى يا رسول الله، فقال: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله تعالى في الرخاء يعرفك في الشدة)[1].

ينبغي للإنسان أن يعيش حالة الارتباط والتعلق بربه في دعائه ومناجاته في جميع أحواله ولا يقتصر على حال الشدة والخوف أو عندما تكون له حاجة دنيوية في حياته، فالمؤمن الذي يعيش حالة العبودية ويستشعر الحاجة إلى خالقه في كل حالاته لا ينسى ولا يغفل عن طلب التسديد والتوفيق والعون والهداية والتوبة والمغفرة من صاحب الفيض المطلق.

إنّ قيمة الدعاء في حياة الإنسان لا تنطلق من شعوره بالحاجة الآنية المحدودة، بل تمتد لتشمل الشعور العميق بالصلة الروحية التي تشد الإنسان إلى ربه ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى ويحث الإنسان على الدعاء في كل حالاته؛ حتى لا تكون علاقته بالله علاقة منفعة مادية، قال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ الله قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف/ ٥٦]، وقال تعالى:﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة/ ١٦]،

(١) أعلام الدين: الديلمي: ١٩٩.

فينبغي أن يكون الدعاء خوفا وطمعا، خوفا من عذاب الله وطمعاً في جنته، فيعيش الإنسان حالة شعورية بين الخوف والرجاء ليكون الدعاء مثمراً، لأنّ الإنسان إذا لم يكن يستشعر الحاجة إلى ربه ويرجو نيله وعطاءه وإذا لم يكن خائفاً من سخط ربه بسبب ما ارتكبه من الأخطاء والتقصير فإن دعاءه لا يكون قد وصل إلى عتبة القبول، لأنّ ذلك احد شروط قبول الدعاء.

إنّ المؤمن يستشعر الحاجة إلى ربه في كل حالاته، وينبغي أن لا يكون الدعاء في وقت الفقر والشدة فقط دون حال الرخاء والغنى؛ لأنّ ذلك يتعارض مع التوحيد، إذ إنّ الالتجاء إلى الله في حال الشدة يعني أنه يؤمن بربوبيته وسلطانه وقاهريته وقدرته على كل شيء، وأما عدم الالتجاء إليه في حال الرخاء والركون إلى الأسباب الدنيوية والنظر إليها على أنها التي لها الفاعلية والتأثير في الأمور فهذا يعني عدم الإيمان بربوبيته تعالى، قال عز وجل: ﴿وَإذا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إليه ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إليه مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لله أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ﴾ [الزمر / ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إليه ثُمَّ إذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم / ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإذا مَسَّ الإنسان الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أو قاعِداً أو قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس/ ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر/ ٤٩]. فهذا الذي يجأر إلى الله في حال الشدة والضيق والعسر

ويضج إليه بالدعاء طالبا تخليصه مما هو فيه من الكرب والبلاء والضيق؛ لأنّ السبل قد انقطعت به، ولم يبق لديه طريق للحل سوى اللجوء إلى من بيده الخلق والأمر رب العالمين، فتراه بحال المنكسر الضعيف الذليل يتوسل بخالق الكون والحياة لقضاء حاجته، ولكن ما أن تقضى حاجته ويتحقق ما كان قبل وقت قصير يتوسل من اجل حصوله، تجده يتكبر ويجحد فضل ربه عليه ويكفر بالنعمة التي أنعم بها عليه، ويجعل له شركاء في حصولها، فيقول لولا فلان لما تحقق الأمر ولولا العلم الذي أحمله ولولا أنّي فكرت واستعملت عقلي ما حصل الأمر، ولولا أني بذلت جهدا لما تحققت هذه النتيجة، وينسى فضل ربه عليه !!!

ـ الإخلاص في الدعاء مقدمة للقبول:

قال تعالى: ﴿ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٩]، ومن وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر قال: (يا أبا ذر .. إذا سألت فاسأل الله و إذا استعنت فاستعن بالله فقد جرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة و لو أن الخلق كلهم جهدوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك ما قدروا عليه)[1]. وهذا من التوحيد العملي في العبادة، وهو إرشاد إلى التعلق بالله في السؤال والاستعانة، فإن الأسباب العادية التي بين ايدينا إنما سببيتها محدودة فهي واسطة في حصول الأشياء والأمر بيد الله. إذاً الواجب على العبد أن يتوجه في حوائجه إلى الله ولا يركن إلى الأسباب الدنيوية، فلا يصح أن يطلب

(١) أعلام الدين: الديلمي: ٢٠٠.

الإنسان الرزق مثلا من الله ومن الإنسان في عرض واحد، أي إنه كما يجعل الله تعالى سبباً وعلة تامة في حصول الرزق فإنه يجعل الإنسان سببا وعلة تامة في حصوله، أما إذا كان طلب حصول الشيء من الإنسان في طول الطلب من الله سبحانه فإنه لا ضير في ذلك لأنه لا يخالف التوحيد بل هو ما تحث عليه الآيات والروايات؛ لأنّ الطلب من الإنسان في هذه الحالة سبب وعلة ناقصة وأما العلة التامة فهو الله تعالى مسبب الأسباب.

وعن الإمام جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن أبيه الحسين بن علي عن أبيه علي بن أبي طالب (عليه السلام) عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (أوحى الله إلى بعض أنبيائه في بعض وحيه إليه و عزتي و جلالي لأقطعن أمل كل مؤمل أمل غيري بالإياس و لأكسونه ثوب المذلة في النار و لأبعدنه من فرجي و فضلي أيؤمل عبدي في الشدائد غيري و الشدائد بيدي أو يرجو سواي و أنا الغني الجواد، بيدي مفاتيح الأبواب و هي مغلقة، و بابي لأملي مفتوح لمن دعاني، ألم يعلموا أنّ من دهته نائبة لم يملك كشفها عنه غيري، فما لي أراه بأمله معرضا عني، و قد أعطيته بجودي و كرمي ما لم يسألني، فأعرض عني، و لم يسألني، و سأل في نائبته غيري، و أنا الله أبتدئ بالعطية قبل المسألة، أفأسال فلا أجود؟! كلا، أوليس الجود و الكرم لي؟ أوليس الدنيا و الآخرة بيدي؟ فلو أن سبع سماوات و أرضين سألوني جميعا فأعطيت كل واحد منه مسألته ما نقص ذلك من ملكي مثل جناح بعوضة، و كيف ينقص ملك أنا قيمه؟! فيا بؤس لمن عصاني و لم يراقبني)[1].

(١) أعلام الدين: الحسن بن محمد الديلمي: ٢١٢.

و عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (قال الله عز و جل ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السماوات و أسباب الأرض من دونه فإن سألني لم أعطه و إن دعاني لم أجبه و ما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السماوات و الأرض رزقه فإن دعاني أجبته و إن سألني أعطيته و إن استغفرني غفرت له)[1].

إنّ الإخلاص سبب في قبول الدعاء واستجابته، وبالتالي يتحقق ما يطلبه العبد من ربه، وهذه نعمة تستحق الشكر، فإذا شكر الإنسان وحمد الله على ذلك، كان استمرارا في إخلاصه وتوحيده لربه، وأما إذا جحد ولم يشكر فقد كفر النعمة واشرك بالله في دعائه، وهو ما ذمه القرآن الكريم بقوله: ﴿فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت/ ٦٥].

ـ الدعاء مع الوثوق بعطاء الله:

إذا رفع المؤمن يديه بالدعاء فعليه أن يُحسن ظنه بربه في أنّه قادر على قضاء حاجته وأن لا يكون يائسا من قضائها فعَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا (عليه السلام) قَالَ: «أَحْسِنِ الظَّنَّ بِالله فإن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي إِنْ خَيْراً فَخَيْراً وَإِنْ شَرّاً فَشَرّاً»[2]، فالله سبحانه ينظر إلى قلب عبده الداعي ويعطيه على قدر نيته. وقد تتأخر الإجابة لمصلحة يعلمها الله تبارك وتعالى ومما ورد في دعاء الافتتاح (ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة

(١) أعلام الدين: الديلمي: ص٢١٣ .
(٢) وسائل الشيعة: الحر العاملي: ١٥/ ٢٢٩ .

الأمور)، وقال الإمام علي (عليه السلام) من وصية له لولده الحسن (عليه السلام): «جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أذن لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ فإن الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلًا أو آجِلًا أو صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ»[1]، فالتأخير ربما يكون لمصلحة دنيوية للعبد، فقد يطلب الإنسان أمراً ليس فيه مصلحة له في الدنيا إذا حصل، فيؤخر لأجل دفع مفسدةً تحصل بحصوله أو قد يكون التأخير لمصلحة أخروية، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله قَالَ: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ وَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَدْعُو اللهَ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ فِي الدُّنْيَا أو يُؤَجِّلَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَإِمَّا أَنْ يُكَفِّرَ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِقَدْرِ مَا دَعَا مَا لَمْ يَدْعُ بِمَأْثَمٍ»[2]، و قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ (عليه السلام): «مَا بَسَطَ عَبْدٌ يَدَيْهِ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا وَاسْتَحَى اللهُ أَنْ يَرُدَّهَا صِفْراً حَتَّى يَجْعَلَ فِيهَا مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ مَا يَشَاءُ فَإِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَرُدَّ يَدَيْهِ حَتَّى يَمْسَحَ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ»[3].

إذاً الدعاء لا يخلو من فائدة للإنسان إذا ما دعا بقلب خاشع نقي من شائبة الرياء فإنه لا شك يحصل على ما ينفعه إما في الدنيا وأما في الآخرة .

(١) نهج البلاغة: الإمام علي، تح: صبحي الصالح: ٣٩٩ .
(٢) وسائل الشيعة، الحر العاملي: ٧ / ٢٧ برقم: ٨٦١٥.
(٣) من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق: ٣٢٥ .

ـ حضور القلب شرط في قبول الدعاء:

إنّ الداعي الإنسان لابد أن يُقبل بقلبه على الله، ولا يدعو وهو ساه القلب، أو لاه في أمر دنيوي، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله (عليه السلام) يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً بِظَهْرِ قَلْبٍ سَاهٍ فَإِذَا دَعَوْتَ فَأَقْبِلْ بِقَلْبِكَ ثُمَّ اسْتَيْقِنْ بِالْإِجَابَةِ»[١]، وقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام): «لَا يَقْبَلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ دُعَاءَ قَلْبٍ لَاهٍ»[٢]، وعَنْ أَبِي عَبْدِ الله (عليه السلام) قَالَ «إِذَا دَعَوْتَ فَأَقْبِلْ بِقَلْبِكَ وَظُنَّ حَاجَتَكَ بِالْبَابِ»[٣].

ـ الإلحاح على الله في الدعاء:

ومن الأمور التي تكون سببا في قبول الدعاء هو الإلحاح على الله في الحاجة، فعَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ الْهَجَرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ (عليه السلام) يَقُولُ «وَالله لَا يُلِحُّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ فِي حَاجَتِهِ إِلَّا قَضَاهَا لَه»[٤]، وعَنْ أَبِي عَبْدِ الله (عليه السلام) قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَرِهَ إِلْحَاحَ النَّاسِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْمَسْأَلَةِ وَأَحَبَّ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ وَيُطْلَبَ مَا عِنْدَهُ»[٥]، وعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ (عليه السلام) قَالَ: «لاَ وَالله لاَ يُلِحُّ عَبْدٌ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ»[٦].

(١) الكافي: الكليني: ٢/ ٤٧٤.
(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٤) الكافي: ٢ / ٤٧٥.
(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

ـ الدعاء يصنع الروح المتواضعة:

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف/ ٥٥]. فعلى العباد أن يتوجهوا إلى ربهم بالدعاء بتذلل ليخرجوا من غلظة الأنانية إلى رقة الضراعة، وبخفية ليكون الدعاء خالصا من الرياء فيتخلص الإنسان من مرض الفخر والكبر. فالإنسان يولد كما زبر الحديد فيحتاج إلى صقل والدعاء هو الذي يصقل النفس الإنسانية؛ لأنّه يولّد في القلب إحساسا بالنقص وثقة بإمكان التغلب عليه. والدعاء يعرّف الإنسان بمواطن ضعفه وضرورة جبرانها، لذا فهو افضل وسيلة لكبح شهوة الاعتداء على الآخرين والتعالي عليهم، وبالتالي فهو أفضل وسيلة لعلاج داء الاستكبار وإصلاح الذات[1].وهكذا يتحول الدعاء إلى عنصر تربوي توجيهي يثير في نفس الإنسان الشعور بالقيم والإحساس بالمعاني الخيرة في الكون، ومسؤوليته تجاه ذلك كله بالعمل على تجسيدها واقعا حيا يتحرك في الحياة ليحركها في سيرها الحثيث نحو المستوى الأفضل. كل ذلك في أسلوب المناجاة الذاتية التي يمارسها الإنسان بين يدي الله فتنفذ معانيها إلى مشاعره وأحاسيسه في بساطة وعفوية .

ولعل قيمة هذا الأسلوب من الوجهة التربوية تكمن في أن الإنسان لا يعيش في أجواء وعظية تأتيه من الآخرين – من فوق – فتكون ثقيلة على نفسه ككل شيء يأتيه من الخارج، بل يظل الإنسان مع الدعاء في مناجاة ذاتية مطمئنة يحدد الإنسان فيها مواقفه ويركز حياته على دروب القيم ويقدم حسابه إلى الله في رجاء تذلل.

(١) ينظر: من هدى القران: السيد محمد تقي المدرسي: ٣/ ٣٣٧ .

وعندما يكون الكلام عن دعاء الصباح لأمير المؤمنين (عليه السلام) يكون له مذاق خاص ووقفة طويلة لما يحمله من معان تدور بمجملها عن صفات الله سبحانه في خلقه للكون والنعم التي يتفضل بها على الإنسان فيقف الداعي عندها متأملا فيتوجه بعدها بالطلب عندما يتذكر أخطاءه في مسيرته في الحياة ولا يملك إلا أن يستعين بخالقه في أن يأخذ بيده، ويهديه إلى الطريق الموصل إلى السعادة الأبدية. ولا أريد أن أطيل الكلام لأننا سنقف إن شاء الله على فقرات هذا الدعاء، لنحاول أن نكشف عما انطوى عليه من كنوز المعاني، وهو أمر يعجز عنه هذا العبد الحقير إلا أن يمده رب العالمين بنوره الذي يضيء له ما انطوى وراء كلمات بحر البلاغة والحكمة علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

ـ الدعاء يعني الحركة:

بقي أن نشير إلى أنّ التركيز على الدعاء والحث عليه لا يعني أن يتكل الإنسان على ربه في قضاء حوائجه ولا يتحرك هو عمليا باتجاه العمل وإيجاد الخطوات العملية الكفيلة بوضع الحلول للمشاكل التي يبتلى بها. فالمريض الذي يطلب الشفاء من الله سبحانه لابد أن يتحرك هو بمراجعة الطبيب العارف الحاذق الذي يخبر أنواع الأمراض والعلاجات المناسبة لها، ثم يواظب المريض على أخذ العلاج في وقته المخصص وبالجرعات المطلوبة، ويبقى الشفاء بيد الله تعالى، فهو المشافي وليس الطبيب. فإن قيل وهل يعجز الله سبحانه عن أن يشفي المريض مباشرة من دون الذهاب إلى الطبيب وتلقي العلاج؟!! نقول: إنّ ذلك وإن كان تحقيقه ليس بمستحيل على الله، لأنه قادر على كل شيء، إلا

أنّ المشيئة الإلهية اقتضت أن تجري الأمور وفق أسبابها الطبيعية، فالله سبحانه قد جعل لكل شيء سبباً، ودعا الإنسان إلى الأخذ بتلك الأسباب، والاعتماد والتوكل على الله بعد استكمال تلك الأسباب، فالصحة والمرض والموت والحياة والحركة والسكون وكل شيء في الحياة لابد أن يكون له سبب في حصوله. وأما المساحة التي تكون لله فهي التوفيق لحصول تلك الأسباب أو عدم حصولها، فقد يسعى المريض لعلاج مرضه بمراجعة طبيب حاذق،ولا يوفق الطبيب لتشخيص المرض بشكل دقيق؛بسبب تشابه أعراضه إلى حد كبير مع أعراض مرض آخر، وبذلك لا يحصل الشفاء.

إنّ من يخالف سنن الله التكوينية فيطلب الشفاء من دون دواء ويطلب الرزق من دون عمل ويطلب النجاح من دون اجتهاد فهذا ممن لا يستجاب دعاؤه كما وصفته الأحاديث الشريفة.

ـ نص الدعاء:

(اَللّهُمَّ يا مَنْ دَلَعَ لِسانَ الصَّباحِ بِنُطْقِ تَبلُّجِهِ، وَسَرَّحَ قِطَعَ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ بِغَياهِبِ تَلَجْلُجِهِ، وَاَتْقَنَ صُنْعَ الْفَلَكِ الدَّوّارِ في مَقاديرِ تَبَرُّجِهِ، وَشَعْشَعَ ضِياءَ الشَّمْسِ بِنُورِ تَاَجُّجِهِ، يا مَنْ دَلَّ عَلى ذاتِهِ بِذاتِهِ وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجانَسَةِ مَخْلُوقاتِهِ وَجَلَّ عَنْ مُلاءَمَةِ كَيْفِيّاتِهِ، يا مَنْ قَرُبَ مِنْ خَطَراتِ الظُّنُونِ وَبَعُدَ عَنْ لَحَظاتِ الْعُيُونِ وَعَلِمَ بِما كانَ قَبْلَ أنْ يَكُونَ، يا مَنْ أرْقَدَني في مِهادِ اَمْنِهِ وَأمانِهِ وَأيْقَظَني إلى ما مَنَحَني بِهِ مِنْ مِنَنِهِ وَإحْسانِهِ وَكَفَّ اَكُفَّ السُّوءِ عَنّي بِيَدِهِ وَسُلْطانِهِ، صَلِّ اللّهُمَّ

عَلَى الدَّليلِ إلَيْكَ في اللَّيْلِ الأَلْيَلِ، وَالْماسِكِ مِنْ أَسْبابِكَ بِحَبْلِ الشَّرَفِ الأَطْوَلِ، وَالنّاصِعِ الْحَسَبِ في ذِرْوَةِ الْكاهِلِ الأَعْبَلِ، وَالثّابِتِ الْقَدَمِ عَلى زَحاليفِها في الزَّمَنِ الأَوَّلِ، وَعَلى آلِهِ الأَخْيارِ الْمُصْطَفَيْنَ الأَبْرارِ، وَافْتَحِ اللّهُمَّ لَنا مَصاريعَ الصَّباحِ بِمَفاتيحِ الرَّحْمَةِ وَالْفَلاحِ، وَالْبِسْني اللّهُمَّ مِنْ اَفْضَلِ خِلَعِ الْهِدايَةِ وَالصَّلاحِ، وَاَغْرِسِ اللّهُمَّ بِعَظَمَتِكَ في شِرْبِ جَناني يَنابيعَ الخُشُوعِ، وَاَجْرِ اللّهُمَّ لِهَيْبَتِكَ مِنْ آماقي زَفَراتِ الدُّموعِ، وَأَدِّبِ اللّهُمَّ نَزَقَ الْخُرْقِ مِنّي بِأَزِمَّةِ الْقُنُوعِ، اِلهي إنْ لَمْ تَبْتَدِئْني الرَّحْمَةُ مِنْكَ بِحُسْنِ التَّوْفيقِ فَمَنِ السّالِكُ بي إلَيْكَ في واضِحِ الطَّريقِ، وَاِنْ أَسْلَمَتْني أَناتُكَ لِقائِدِ الأَمَلِ وَالْمُنى فَمَنِ الْمُقيلُ عَثَراتي مِنْ كَبَواتِ الْهَوى، وَاِنْ خَذَلَني نَصْرُكَ عِنْدَ مُحارَبَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطانِ فَقَدْ وَكَلَني خِذْلانُكَ إلى حَيْثُ النَّصَبُ وَالْحِرْمانُ، اِلهي أَتَراني ما أَتَيْتُكَ إلاّ مِنْ حَيْثُ الآمالِ أَمْ عَلِقْتُ بِأَطْرافِ حِبالِكَ إلاّ حينَ باعَدَتْني ذُنُوبي عَنْ دارِ الْوِصالِ، فَبُئْسَ الْمَطِيَّةُ الَّتي امْتَطَتْ نَفْسي مِنْ هَواها فَواهاً لَها لِما سَوَّلَتْ لَها ظُنُونُها وَمُناها، وَتَبّاً لَها لِجُرْأَتِها عَلى سَيِّدِها وَمَوْلاها، اِلهي قَرَعْتُ بابَ رَحْمَتِكَ بِيَدِ رَجائي وَهَرَبْتُ إلَيْكَ لاجِئاً مِنْ فَرْطِ أَهْوائي، وَعَلَّقْتُ بِأَطْرافِ حِبالِكَ أَنامِلَ وَلائي، فَاصْفَحِ اللّهُمَّ عَمّا كُنْتُ (كانَ) أَجْرَمْتُهُ مِنْ زَلَلي وَخَطائي، وَأَقِلْني مِنْ صَرْعَةِ رِدائي فَإنَّكَ سَيِّدي وَمَوْلاي وَمُعْتَمَدي وَرَجائي وَأَنْتَ غايَةُ مَطْلُوبي وَمُناي في مُنْقَلَبي وَمَثْواي، اِلهي كَيْفَ تَطْرُدُ مِسْكيناً الْتَجَأَ إلَيْكَ مِنَ الذُّنُوبِ هارِباً، أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ مُسْتَرْشِداً قَصَدَ إلى جَنابِكَ ساعِياً، أَمْ كَيْفَ تَرُدُّ ظَمْآناً وَرَدَ إلى حِياضِكَ شارِباً كَلاّ وَحِياضُكَ

مُتْرَعَـةٌ في ضَنْـكِ المحُـولِ، وَبابُكَ مَفْتُـوحٌ لِلطَّلَبِ وَالْوُغُـولِ، وَأَنْتَ غايَةُ الْمَسْـؤولِ (السُّـؤْلِ) وَنِهايَةُ الْمَأْمُولِ، الهي هذِهِ أزِمَّةُ نَفْسي عَقَلْتُها بِعِقالِ مَشِـيَّتِكَ وَهـذِهِ أعْبـاءُ ذُنُوبـي دَرَأْتُهـا بِعَفْـوِكَ وَرَحْمَتِكَ وَهـذِهِ أهْوائِي الْمُضِلَّـةُ وَكَلْتُها إلى جَنـابِ لُطْفِكَ وَرَأفَتِكَ، فَاجْعَـلِ اللّهُمَّ صَباحي هذا نـازِلاً عَلَـي بِضِياءِ الْهُدى وَبِالسَّـلامَةِ في الدّيـنِ وَالدُّنْيا، وَمَسـائي جُنَّةً مِـنْ كَيْدِ الْعِدى (الأعْـداءِ) وَوِقايَةً مِنْ مُرْدِياتِ الْهَـوى إنَكَ قادِرٌ عَلى ما تَشـاءُ تُؤتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشـاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشـاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إنَّـكَ عَلى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، تُولِجُ اللَيْلَ في النَّهارِ وَتُـولِجُ النَّهـارَ في اللَّيْـلِ وَتُخْـرِجُ الْحَيَّ مِـنَ الْمَيِّتِ وَتُخْـرِجُ الْمَيِّـتَ مِنَ الْحَيِ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِساب، لا إلهَ إلاّ أنْتَ سُبْحانَكَ اللّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ مَنْ ذا يَـعْرِفُ قَدْرَكَ فَلا يَخافُكَ، وَمَن ذا يَـعْلَمُ ما أنْتَ فَلا يَهابُكَ، أَلَّفْتَ بِقُدْرَتِكَ الْفِرَقَ، وَفَلَقْتَ بِلُطْفِكَ الْفَلَقَ، وَأَنَرْتَ بِكَرَمِكَ دَياجِي الْغَسَقِ، وَأَنْهَرْتَ الْمِياهَ مِنَ الصُمِّ الصَّياخِيدِ عَذْباً وَأجاجاً، وَأَنْزَلْتَ مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً، وَجَعَلْـتَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ لِلْبَرِيَّةِ سِـراجاً وَهّاجاً مِنْ غَـيْرِ أنْ تُمارِسَ فيما ابْتَدَأتَ بِهِ لُغُوباً وَلا عِلاجاً، فَيا مَنْ تَوَحَّدَ بِالْعِزِّ وَالْبَقاءِ، وَقَهَرَ عِبادَهُ بِالْمَوْتِ وَالْفَنـاءِ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِهِ الأتْقِياءِ، وَاسْمَعْ نِدائي وَاسْـتَجِبْ دُعائي وَحَقِّـقْ بِفَضْلِكَ أمَلي وَرَجائي يا خَيْرَ مَنْ دُعِـيَ لِكَشْـفِ الضُّرِّ وَالْمَأْمُولِ لِكُلِّ عُسْـرٍ وَيُسْر، بِكَ أنْزَلْتُ حاجَتي فَلا تَرُدَّنـي مِنْ سَنِيِّ مَواهِبِكَ خائِباً يـا كَـرِيمُ يا كَـرِيمُ يا كَـرِيمُ بِرَحْمَتِكَ يا أرْحَمَ الرّاحِمينَ وَصَلَّى اللّهُ عَلى خَيْرِ خَلْقِـهِ مُحَمَّد وَآلِهِ أجْمَعينَ.

ثُمَّ أُسْجُدْ وَقُلْ: **اِلهي قَلْبي مَحْجُوبٌ، وَنَفْسي مَعْيُوبٌ، وَعَقْلي مَغْلُوبٌ، وَهَوائي غالِبٌ، وَطاعَتي قَليلٌ، وَمَعْصِيَتي كَثيرٌ، وَلِساني مُقِرٌّ بِالذُّنُوبِ فَكَيْفَ حيلَتي يا سَتّارَ الْعُيُوبِ وَيا عَلّامَ الْغُيُوبِ وَيا كاشِفَ الْكُرُوبِ، اِغْفِرْ ذُنُوبي كُلَّها بِحُرْمَةِ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ يا غَفّارُ يا غَفّارُ يا غَفّارُ بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرّاحِمينَ**[1].

(١) بحار الانوار: العلامة المجلسي: ٨٤/ ٣٣٩-٣٤٢ وقد قال (رحمه الله) في بيان سنده:

(هذا الدعاء من الأدعية المشهورة، ولم أجده في الكتب المعتبرة إلا في مصباح السيد ابن الباقي رحمة الله عليه، ووجدت منه نسخة قراءة المولى الفاضل مولانا درويش محمد الأصبهاني جد والدي من قبل أمه رحمة الله عليهما، على العلامة مروج المذهب نور الدين علي بن عبد العالي الكركي قدس الله روحه، فأجازه).

المبحث الأول

مفاتيح الإجابة

الحمد والثناء بذكر صفات الله
والصلاة على النبي والآل

«اَللّهُمَّ يا مَنْ دَلَعَ لِسانَ الصَّباحِ بِنُطْقِ تَبَلُّجِهِ، وَسَرَّحَ قِطَعَ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ بِغَياهِبِ تَلَجْلُجِهِ، وَاَتْقَنَ صُنْعَ الْفَلَكِ الدَّوّارِ في مَقاديرِ تَبَرُّجِهِ، وَشَعْشَعَ ضِياءَ الشَّمْسِ بِنُورِ تَاَجُّجِهِ، يا مَنْ دَلَّ عَلى ذاتِهِ بِذاتِهِ وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجانَسَةِ مَخْلُوقاتِهِ وَجَلَّ عَنْ مُلاءَمَةِ كَيْفِيّاتِهِ، يا مَنْ قَرُبَ مِنْ خَطَراتِ الظُّنُونِ وَبَعُدَ عَنْ لَحَظاتِ الْعُيُونِ وَعَلِمَ بِما كانَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، يا مَنْ أَرْقَدَني في مِهادِ اَمْنِهِ وَأَمانِهِ وَأَيْقَظَني إلى ما مَنَحَني بِهِ مِنْ مِنَنِهِ وَإِحْسانِهِ وَكَفَّ اَكُفَّ السُوءِ عَنّي بِيَدِهِ وَسُلْطانِهِ، صَلِّ اللّهُمَّ عَلَى الدَّليلِ إلَيْكَ في اللَّيْلِ الأَلْيَلِ، وَالْماسِكِ مِنْ أَسْبابِكَ بِحَبْلِ الشَّرَفِ الأَطْوَلِ، وَالنّاصِعِ الْحَسَبِ في ذِرْوَةِ الْكاهِلِ الأَعْبَلِ، وَالثّابِتِ الْقَدَمِ عَلى زَحاليفِها في الزَّمَنِ الأَوَّلِ، وَعَلى آلِهِ الأَخْيارِ الْمُصْطَفَيْنَ الأَبْرارِ».

يفتتح الإمام (عليه السلام) دعاءَه بعدد من الأوصاف لرب العزة سبحانه، والصلاة على النبي وآله، وهو تعليم منه (عليه السلام) في أدب الدعاء بأن يفتتح بحمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي وآله.

«اَللّهُمَّ يا مَنْ دَلَعَ[1] لِسانَ الصَّباحِ بِنُطْقِ تَبَلُّجِهِ[2]» .

يبتدأ الإمام دعاءَه بمناجاة الله تعالى والثناء عليه بذكر بعض صفاته

(١) دلع: أخرج، يقال دلع لسانه، أخرجه من الفم لتعب أو ضمأ. ينظر: لسان العرب: ابن منظور: ٨/ ٩٠، مادة (دلع).

(٢) بَلَجَ الصُّبْحُ يَبْلُجُ، بالضم، بُلُوجاً، وانْبَلَجَ، وتَبَلَّجَ: أَسْفَرَ وأَضاء. وابْلاجَّ الشيءُ: أَضاء. وأَبْلَجَتِ الشمسُ: أَضاءَت. والبُلُوجُ: الإِشراقُ، يقال بلج الصبح أشرق وأنار. و أَبْلَجَ الحَقُّ: ظهر؛ و يقال: هذا أَمْرٌ أَبْلَجُ أَي واضح؛ و قد أَبْلَجَهُ: أَوضحه. ينظر: المصدر نفسه: ٢/ ٢١٥، مادة (بلج).

الجمالية التي تتجلى فيها قدرته سبحانه ومنها إخراجه الصباح من رحم ظلمات الليل معلنا مجيء يوم جديد، ومظهرا لعظيم صنع الله في ما خلق من أنواع الموجودات، ومؤذنا ببداية الحركة والنشاط لكل المخلوقات الحية.

إنّ كلمة «دلع» وإن استعملها اللغويون في خروج اللسان من الفم بيد أنّ الدلالة التي نستوحيها من هذه الكلمة تختلف عما نجده في كلمة «أخرج»، إذ إنّ كلمة «دلع» تعطينا إيحاءً يصور لنا خروج اللسان وتدليه من الفم كما هو الحال عند بعض الحيوانات إذا أصابها الظمأ. وعندما نقرأ هذه الفقرة من الدعاء (يامن دلع لسان الصباح) تتحرك في نفوسنا الصورة ذاتها لذلك اللسان الذي يتدلى بعيدا عن ظلمة الفم، ولكن هذا اللسان من نوع آخر انه ذلك النور الذي يشق الظلمة، ويخرج من الأفق بعد انتهاء الليل باتجاه قبة السماء ليمزق ظلمة الليل مستطيلا في ابتدائه ليشع رويدًا رويدا[1].

إنّها لصورة جميلة ترسمها لنا عبارة الدعاء، حيث تظهر ذلك الوجود الصباحي وهو يخرج من رحم الظلام، ليملأ العالم نورا. وتكتمل تلك الصورة عندما يوصف لسان الصباح بالنطق، فتشعر بأن الحياة قد دبت فيه، فهو ينطق بعظيم وروعة مخلوقات الله، التي كشف عنها الضياء الذي بعثت خيوطه الشمس، بعد أن أُذن لها أن تطلع معلنة عن يوم جديد. وهي صورة استعارية جميلة رسمتها لنا فقرة الدعاء، إذ أضفى الإمام على الزمان (الصباح) صفات الموجود المادي وهو ما يسمى بـ(التشخيص) في علم البلاغة.

(١) ينظر: أضواء على دعاء الصباح: عز الدين بحر العلوم: ٦٨-٧٠، و مع الإمام علي في دعاء الصباح: ناجي صبرا: ٢٨ .

«وَسَرَّحَ[1] قِطَعَ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ بِغَياهِبِ[2] تَلَجْلُجِهِ[3]»

في هذه الفقرة نجد صورة استعارية أخرى، وذلك باستعمال أسلوب التشخيص أيضا، إذ جعل الليل الشديد الظلمة كأنه قطع سوداء تتردد الواحدة تلو الأخرى وهي عائمة في السماء إلى أن يأتي الإذن الإلهي بأن تذهب بعيدا ليأتي الصبح فينشر ضياءه على العالم.

لقد استعار الدعاء صورة كانت مألوفة عند الناس ولا زالت وهي صورة الراعي الذي يقود غنمه ويسيّرها كيف يشاء والى أي اتجاه يريد، وهو مسيطر عليها، هذه الصورة قد استعيرت لتدل على سيطرة خالق هذا الكون الكاملة على آنات الليل وساعاته، وهو يسرّحها في سيرها الزمني الرتيب. فهي مؤتمرة بأمره خاضعة لإرادته. فقبل أن يتنفس الصباح كانت هناك حالة من الضيق الظلامي، كان هناك دفق من أمواج الظلمات تتداخل و تتزايد وتتلاطم وتتعاظم، وكأن الليل قد رمى بثقله على وجه الأرض، وبسط سلطانه عليها، فلا احد غير الله تعالى يقدر على إخراج هذا الضياء رغما عن تلك الغياهب وذلك السواد الشديد[4]. فإذا لم يشأ أن يخرج نور

(١) التسريح: هو الإرسال، سّرح الراعي الماشية: أرسلها، قطع الليل: هي آناته المكونة من الساعات والدقائق والثواني ينظر: لسان العرب: ٢/ ٤٧٩، مادة (سرح).

(٢) الغياهب: جمع غيهب وهو الظلمة الشديدة الحالكة. ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٦٥٣، مادة (غهب).

(٣) التلجلج: هو التردد، يقال تلجلج فلان في كلامه إذا تردد ولم يفصح عمّا يريد. ينظر: مجمع البحرين: الطريحي: ٢/ ٤٩٢، مادة (لجج).

(٤) ينظر: مع الإمام علي في دعاء الصباح: ٣٢ .

الصباح فلا احد غيره يستطيع ذلك. ولكنه سبحانه بلطفه أخرج النور الجلي من رحم الظلمات المتلجلجة والمترددة.

وفي افتتاح الدعاء بهاتين الجملتين: (يامن دلع لسان الصباح، وسرح قطع الليل) الدالتين على الظاهرتين الكونيتين ـ وتقديمهما على غيرهما من صفاته سبحانه نظام دقيق. ولعل في ذلك التقديم إشارة إلى أهميتهما في حياة الإنسان، إذ إنهما بتعاقبهما المستمر يعلنان حالة الخسارة المستمرة في عمر الإنسان التي أشار إليها التعبير القرآني في سورة العصر (إن الإنسان لفي خسر)، إذ يخسر من نفسه وعمره وطاقته وشبابه وعقله، فلا مناص من حالة النزيف اليومي التي يعلنها تعاقب هاتين الظاهرتين.

«وَأتْقَنَ صُنْعَ الْفَلَكِ الدَّوّارِ في مَقاديرِ تَبَرُّجِهِ[1]»:

وفي هذه العبارة دليل آخر على براعة الإمام علي (عليه السلام) في تناوله للمعنى وصياغته للعبارات، إذ نجد ترابطا وثيقا بين هذه الفقرة وبين ما سبقها من جانب المعنى، فإن الله الخالق المبدع الذي أخرج الصباح من رحم الظلمات وجعله للناس معاشا يمارسون فيه أعمالهم، ويسيحون فيه طلبا للرزق لم يخلق الخلق اعتباطا، وإنما خلقه وصنعه بدقة عالية لغاية وحكمة بالغة، فقدّر على مقتضى هذه الغاية كلّ شيء أخرجه إلى الوجود، وجعل له في

(١) البُرُجُ: واحد من بروج الفَلَك، و هي اثنا عشر برجاً، و الجمْع أَبراجٌ و بروجٌ، و كذلك بروج المدينة و القصر، قال أَبو إِسحق في قوله تعالى: (و السماء ذات البروج) قيل: ذات الكواكب، و قيل: ذات القصور في السماء. وقال الفراء: اختلفوا في البروج، فقالوا: هي النجوم، و قالوا: هي البروج المعروفة اثنا عشر برجا. و قوله تعالى: و لو كنتم في بُروجٍ مُشَيَّدةٍ، البروجُ ههنا: الحصونُ، واحدها برج. ينظر: لسان العرب: ٢/ ٢١٢، مادة (برج).

هذه الحياة أجلا محدودا. ولقد اتقن الصانع الحكيم ما صنعه وأوجده، وهذا من دلائل قدرته وحكمته، إذ إنّ من يصنع شيئا لغاية لابد أن يحافظ عليه حتى تتحقق الغاية من صنعه. وهذا ما وجدنا الإمام (عليه السلام) يشير إليه في فقرة دعائه هذه، إذ إنّ الله سبحانه لما كان قد خلق هذا العالم لغاية وحكمة بالغة ـ وهذا مما لا يشكك فيه عاقل ـ إذاً فلابد أن يبقى هذا العالم محفوظا حتى تتحقق تلك الغاية.

هذا من جانب المعنى أما من جانب اللفظ، فإذا نظرنا إلى كلمة (الدوّار) في الفقرة والتي استعملها الدعاء لتشير إلى حالة دوران الكواكب والنجوم في أفلاكها ومداراتها، نجد أنها جاءت ملائمة تماما للمعنى المراد. ولو استبدلنا كلمة (الدائر) اسم الفاعل ـ بكلمة (الدوّار) لاختل نسق الكلام وذهب رونقه وجماله الصوتي ولاختفى ذلك الإيحاء الذي نحصل عليه من كلمة (الدوّار) التي تشير إلى تكثر الدوران في حدوثه. وما هذا الاختيار الدقيق للألفاظ وهذه المكنة العالية في ربط المعاني بعضها ببعض إلّا دليل على المقدرة اللغوية التي يمتلكها الإمام والتي استحق على أساسها أن يوصف كلامه أنّه « دون كلام الخالق فوق كلام المخلوقين».

«وَشَعْشَعَ[1] ضِياءَ الشَّمْسِ بِنُورِ تَأَجُّجِهِ[2]»

استعمل الإمام في هذه الفقرة كلمتين مترادفتين هما (النور، والضياء)

(١) يقال شعشع زيد الشراب أي خلطه، وشعشعت الشمس انتشر ضوؤها. ينظر: لسان العرب: ٨/ ١٨٢، مادة (شع).

(٢) تأججه يعني تلهبه. ينظر: المصدر نفسه: ٢/ ٢٠٦، مادة (أجج).

وقد فرّق بعضهم[1] بين الكلمتين بأن الضوء ما كان من ذات الشيء المضيء، وأما النور فهو ما كان مستفادًا من غيره، وعليه جرى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ﴾ [يونس/ ٥]، وفي هذا الاستعمال الدقيق للمفردتين تتبين مقدرة الإمام في مجال اختيار اللفظة فيما لا نجده إلا في استعمالات القرآن الكريم.

ثم إننا إذا لاحظنا كلمة (شعشع) وما يرافقها من ظلال المعنى من خلال التكرار الذي في صوتي الشين والعين والذين كونا مقطعين متكررين (شع شع) هذا التكرار قد ولد إيحاءً صوتيا وصورة ترتسم في ذهن السامع تبين حالة انتشار شعاع ضوء الشمس وامتزاجه بالشعاع المنعكس من الأجسام النيرة.

«يا مَنْ دَلَّ عَلى ذاتِهِ بِذاتِهِ وَتَنَزَّهَ[2] عَنْ مُجانَسَتِهِ[3] مَخْلُوقاتِهِ وَجَلَّ عَنْ مُلاءَمَتِهِ[4] كَيْفِيّاتِهِ[5]» .

إن الأشياء بصورة عامة إذا أريدَ تعريفها والدلالة عليها فإنه يؤتى بجنسها وفصلها لكي يتم تمييزها عن غيرها، أو يؤتى بما يشبهها في الوجود لتقريب صورتها إلى الذهن. وكل شيء ارشد إلى غيره فقد دل عليه وكشف عنه ولابد أن يكون المعرِّف غير المعرَّف وأجلى صورة منه. وهذا مطّرد في

(١) الفروق في اللغة: أبو هلال العسكري: ٣١١ .
(٢) تنزّه: بَعُد عن الاتصاف بصفات المخلوقين. ينظر: لسان العرب: ١٣/ ٥٤٨، مادة (نزه).
(٣) والمجانسة هي المشاركة في الجنس والاتحاد فيه كالحيوانات التي تتحد بالحيوانية ويفترق كل منها عن الآخر بالفصل الذي يميزه. ينظر: المصدر نفسه: ٦/ ٤٣، مادة (جنس).
(٤) الملاءمة: هي الموافقة والمجامعة. ينظر: المصدر نفسه: ١٢/ ٥٣٨، مادة (لأم).
(٥) الكيفية هي الحالة والصفة. ينظر: كتاب العين: الفراهيدي: ٥/ ٤١٤، مادة (كيف).

كل الأشياء إلّا الذات المقدسة فإن هذه القاعدة تنخرم بالنسبة إلى ذات الله سبحانه، وذلك لأنّ القول باحتياجه تعالى إلى الكاشف الخارجي البعيد ينافي غناه الذاتي عن الاحتياج، وكذلك يستلزم أن يكون معرّفه أوضح منه وأجلى ليظهره ويدل عليه، وهذا ما لا يمكن الالتزام به؛ لأنّه يثبت النقص إليه سبحانه، وحاشاه من كل نقص[1]. لذلك نجد الإمام الحسين (عليه السلام) في دعاء عرفة ينكر هذا الأمر على القائلين به، فيقول: (كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ... متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك)[2].

لكن قد يسأل بعضهم فيقول: إن كان لذات الله هذا الظهور وهذا الحضور فلماذا لا يمكن أن نراه أو نسمع صوته؟ فتأتي الفقرة الثانية والثالثة لتجيبنا عن هذا التساؤل (وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته وجل عن ملاءمة كيفياته) إذ بعُد سبحانه عن أن يكون له جنس كما لمخلوقاته وعظم عن أن يوصف بصفات المخلوقين، كالجسمية والكينونة والتغير والمحدودية وغيرها من الصفات التي تتلاءم مع النقص والاحتياج، لأنه سبحانه هو الغني المطلق وهو الكمال المطلق.

ولو أنعمنا النظر في الفقرات السابقة لوجدنا أنها جاءت متلائمة منسجمة من ناحية الصياغة، حيث تظهر فيها جودة السبك ورصانة التعبير، فإنه (عليه

(١) ينظر: أضواء على دعاء الصباح: ٩٦.
(٢) دعاء الإمام الحسين في يوم عرفة (مفاتيح الجنان).

السلام) لم يقل: يامن دلّ بذاته على ذاته، ولو انه قد عبّر عن المعنى بهذه العبارة لذهب هذا الانسجام والتآلف بين النسيج اللغوي في العبارات. وكان لاختيار الألفاظ ذات الجرس الصوتي القوي دور ملحوظ في جمالية العبارة وحسنها، ونجد ذلك في الكلمات (دلّ، تنزّه، جلّ) التي جاءت في بدايات الفقرات، ومما زاد العبارة حسنا تلك السجعات الطويلة بمساعدة صوت المد (الألف) والتي ختمت بها فقرات الدعاء، فإنه لا ينكر دورها في انسجام العبارة وتلاؤمها .

وأما فيما يخص علاقة هذه الفقرات بالفقرات السابقة، فإن هذه الفقرات تأتي في مقام الإجابة عمن رأى قدرة الله التي تجسدت في تسيير قطع الليل المظلم وإخراج الصباح من رحم تلك الظلمات ليتنفس يوم جديد فيظن أنّ هذا الخلق المتقن يدل على الله ويكشف عنه، فتأتي هذه الفقرات لتجيب عن هذا الاعتقاد، وتصحح هذه النظرة بأنّه تعالى ليس خافيا حتى يحتاج إلى ما يظهره .

«يا مَنْ قَرُبَ مِنْ خَطَراتِ[1] الظُّنُونِ وَبَعُدَ عَنْ لَحَظاتِ[2] الْعُيُونِ وَعَلِمَ بِما كانَ قَبْلَ اَنْ يَكُونَ» .

إنّ من ينعم النظر في هذه العبارة ويبحث عن العلاقة فيما بينها سيجد ترابطا معنويا بين فقراتها لا يجده إلا في آيات القرآن الكريم، إذ يصف الإمام (عليه

(١) الخطرات هي جمع خطرة وهي ما يخطر من الأمور في القلب أو العقل. ينظر: لسان العرب: ٤/ ٤٥٣، مادة (خطر).

(٢) لحظات جمع لحظة وهي النظر بمؤخِرِ عينِه من أَيّ جانبيه كان، يميناً أو شمالاً، و هو أَشدّ التفاتاً من الشزْر. و قيل: اللحْظة النظْرة من جانب الأُذن . و المُلاحَظَةُ: مُفاعلة من اللَّحْظ، و هو النظر بشِقِّ العين الذي يلي الصدغ، و أَمّا الذي يلي الأَنف فالمُوقُ. لسان العرب: ٧/ ٤٥٨، مادة (لحظ).

السلام) في هذه الفقرات قاهرية الله تعالى على عباده وإحاطته بهم، فهو سبحانه قريب من خلقه لا يحجبه شيء عنهم فلا يخفى عليه أمر من أمور خلقه حتى ما يخطر على قلوبهم من الوساوس والظنون، ونجد هذا المعنى في قول الله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُور﴾ [غافر/ ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة/ ٩]، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود/ ٥]. وليس قربه سبحانه مكانيا جل عن أن يوصف بذلك، فهو سبحانه ليس من جنس الأجسام حتى يكون له حيّز فيكون قريبا أو بعيدا، ولو كان كذلك لأمكنت رؤيته، ولكن ربنا جل وعلا (بعد عن لحظات العيون) فلا يمكن لحواس الإنسان أن تناله، ولا يمكن رؤيته؛ لأنه سبحانه «لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَان» كما قال أميز المؤمنين[1]، وهو سبحانه عالم بعد ذلك بكل شيء يصدر من الإنسان من قول أو فعل أو حركة (وعلم بما كان قبل أن يكون)، و(كان) هنا تامة بمعنى (وُجِد) فهو سبحانه عالم بالموجود في جميع أحواله وبكل ما يصدر عنه، قال تعالى: ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودا﴾ [يونس/ ٦١].

(١) و من كلام له (عليه السلام) وقد سأله ذعلب اليماني فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين فقال: (أ فأعبد ما لا أرى فقال و كيف تراه فقال: (لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَابِسٍ بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ، مُتَكَلِّمٌ لَا بِرَوِيَّةٍ مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ، لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ) نهج البلاغة: ٢٥٨.

من هذا الذي سبق يتبين لنا العلاقة المعنوية بين هذه الفقرات الثلاث، فهو سبحانه قريب من خلقه، ولما كان قربه ليس من قبيل القرب المكاني إذ إنّه ليس من جنس الماديات والجسمانيات، فلابد أن يكون مطلعا على كل ما يصدر من الإنسان وكل ما يدور حوله .

ولا نغفل أيضا الترابط الوثيق بين هذه الفقرات وبين الفقرات التي سبقتها، إذ نجد أنّها نتيجة لما تقدم من فقرات، فبعد أن تنزّه سبحانه و بعد عن مشابهة مخلوقاته، وارتفع، وجل عن أن يشاكل أوصاف المخلوقين، فلابد إذاً أن تنتفي عنه كل صفة تستوجب نقصا في ذاته المقدسة، حيث لم يكن بعيدا عن خلقه وإنما هو محيط بهم قريب منهم. وليس قربه مكانيا فلا يمكن للمخلوقين رؤيته فهو بعيد عن أن تراه الأبصار، وليس بعده مكانيا حتى تخفى عليه الأشياء والأمور التي بعدت عنه، بل هو محيط وعالم بالموجودات بأجمعها.

ولعلي لا أحيد عن الصواب إن قلت إنّ هذه الفقرات جاءت وقد وضعت في قالب لفظي غاية في الدقة والرصانة والسبك فخرجت المعاني بأبهى حلة لها، ولو غيرت العبارة عن هذا الرصف الدقيق لما كان لها هذا الحسن.

ولا ينكر ما لاختيار الألفاظ في الفقرات السابقة من فضل في حسن المعنى وجودته، ويتجلى ذلك في التجانس أو المماثلة في البنية الصرفية، كما في (خطرات ـ لحظات) و (الظنون ـ العيون) وكذلك في استخدام بعض فنون البديع كالطباق الذي ورد في (قَرُب ـ بَعُد) فخرجت الفقرات منسجمة متناغمة تنساب في النطق كما ينساب الماء على اللسان .

«يا مَنْ أرْقَدَني في مِهادِ اَمْنِهِ وَأمانِهِ وَأيْقَظَني إلى ما مَنَحَني[1] بِهِ مِنْ مِنَنِهِ[2] وَإحْسانِهِ وَكَفَّ اَكُفَّ السُوءِ عَنّي بِيَدِهِ وَسُلْطانِهِ» .

في هذه الفقرات يذكّر الإمام (عليه السلام) بنعم الله تعالى، وابتدأ بذكر نعمة النوم، حيث قدّر الله لهذا البدن المتعب أن يأخذ قسطا من الراحة فينام مطمئنا، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس/ ٦٧].

وفي تعبير الإمام (عليه السلام) عن هذه النعمة بقوله: (يامن أرقدني في مهاد أمنه وأمانه) تظهر روعة التصوير والبيان في الدعاء، إذ ينقلنا الإمام إلى صورة تلك الأُم التي وضعت طفلها في مهده تهدهده وترقيه وتنظر إليه بعين قد أثقلها النعاس وأتعبها السهر، تنتظر إغفاءة طفلها لتأخذ هي قسطا من النوم ولو لبعض الوقت، والمعلوم إنّ الذي دفع الأم لتحمل ذلك هو حبها لولدها وعطفها عليه. من خلال هذه الصورة يبين الدعاء لطف الله تعالى بعبده إذ تفضل عليه بهذه النعمة (النوم) فألقى عليه نعاسا لينام في رحاب حِمى الربِّ الرحيم ويُلقي عن كاهله أعباء يوم ثقيل مرّ عليه[3].

ويستمر الإمام في وصف أنعُم الله على عبده، فذكر نعمة النوم وأردفها بذكر نعمة اليقظة بعد النوم، إذ إنّ نعمة النوم لا تكتمل إلا إذا انتبه الإنسان

(١) المنحة: هي العطاء، مَنَحَه: أَعطاه، والمنحة: أَن يعطي الرجلُ صاحبه المال هبة أَوصلة فيكون له. ينظر: لسان العرب: ٢/ ٦٠٧، مادة (منح).

(٢) المِنَن جمع منّة، يقال: منّ زيد على عمرو إذا أنعم عليه بلا تعب. ينظر: المصدر نفسه: ١٣/ ٤١٥، مادة (منن).

(٣) ينظر: أضواء على دعاء الصباح: ١٢٥ .

من نومه ورقاده، لينهض وقد استعاد الجسد حيويته ونشاطه، وليستقبل يوما جديدا يمارس فيه نشاطاته وأعماله ويكون فيه محلاً لنعم الله المتواصلة .

إذاً اليقظة نعمة مكملة لنعمة النوم، ولو أنّ هذا الجسد بقي في نوم مستمر لا تعقبه يقظة فهو في الحقيقة لا يعد من الأحياء، وكذا لو حصل العكس أي لو بقي الإنسان مستيقظا بصورة مستمرة من دون أن ينام ويريح جسمه، لخارت قواه وتوقفت أجهزته عن أداء عملها، بسبب ما يصيبها من الإعياء والجهد. إذاً النوم واليقظة نعمتان كبيرتان تكمّل إحداهما الأخرى، وهما مظهر من مظاهر لطف الله بعباده ورحمته لهم.

ولا تقتصر نعم الله على عبده عند هذا الحد، فهي كثيرة يضعف الفهم عن إدراكها ويكل اللسان عن إحصائها، وهنا يذكر الإمام نعمة أخرى من نعم الله تعالى (وكف أكف السوء عني بيده وسلطانه) إن الأم الرحيمة التي ترعى طفلها وتسهر ليلها حرصا على ولدها وتحوطه بحنانها ورعايتها وتراقبه في نهارها لئلا يصيبه مكروه ما، هذه الأم تكون عاجزة عن دفع أي مكروه عن ولدها إذا تمكن النوم من عينيها أو عندما تنشغل عن طفلها بعمل معين، أما رب العباد الذي وسعت رحمته كل شيء فإنه لا تنام عينه حين تنام العيون ولا يشغله عن عباده شيء، فهو يرعاهم ويدفع عنهم الضرر ويمنع عنهم كلّ سوء ويدرأ عنهم كلّ خطر؛ لأنّه عزّ اسمه يحب عباده، وكيف لا يحبهم وهو الذي خلقهم وحسّن صورهم، يقول الإمام الحسين في دعاء عرفة: (ثم ما صرفت عني ودرأت عني اللهم من الضر والضراء أكثر مما ظهر لي من العافية والسرّاء)[1].

(١) مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي: دعاء عرفة .

ولو أنعمنا النظر في الفقرات السابقة لوجدنا أنّ اختيار الكلمات لم يكن اعتباطا، بل كان بدقة ومعرفة بما يلائم المعنى جيدا، إذ كان الإمام (عليه السلام) مهتما بصياغة العبارات واختيار الألفاظ الملائمة للمعاني التي يريد التعبير عنها، ليخرج النص غاية في الجمال والسبك؛ لأنّه كان يخاطب الجميل الذي يحب الجمال. فإذا نظرنا إلى قوله عليه السلام: (يامن أرقدني في مهاد أمنه وأمانه) نجد الإمام يختار كلمة (أرقدني) وكلمة (مهاد) بما فيهما من دلالة على الراحة والسكينة ولو استبدل كلمة (أنامني) بكلمة (أرقدني) وكلمة (فراش) بكلمة (مهاد) لما كان ذلك الحسن الذي وجدناه في الكلمتين (أرقدني، ومهاد) مما يدل على أن اختيار الإمام لهاتين الكلمتين كان مقصودا.

ثم إذا انتقلنا إلى الفقرة الأخرى (وأيقظني إلى ما منحني به من مننه وإحسانه) سنجد ترابطا وثيقا بين هذه الفقرة وبين التي سبقتها، ويمكن إن نتحسس ذلك الترابط في الكلمتين (أرقدني، وأيقظني) فهو سبحانه بعد أن تفضل على عباده فجعل لهم الليل سكنا يريحوا فيه أجسادهم ويكون جماما لقواهم، تفضل عليهم بنعمة أخرى فأيقظهم ورد عليهم أرواحهم ليطلع عليهم يوم جديد يمارسون فيه أعمالهم ويسعون في طلب أرزاقهم، وهو سبحانه في كل هذه الأحوال حافظ لهم من كل سوء (وكف أكف السوء عني بيده وسلطانه).

وإذا لاحظنا تعبير الإمام (وكف أكف السوء) سنجد صورة بيانية رائعة حيث استعار الدعاء للحوادث أكفا، لأنّ العمل غالبا يكون بالكف، وأما

قوله عليه السلام: (بيده وسلطانه) فهو كناية عن قدرة الله سبحانه وسلطته على كل شيء. ولا يمكن الإغفال عن السمة البارزة في كلام الإمام وهي الاختيار الدقيق للعبارات واستعمال الأساليب البديعية في إثراء المعنى كالجناس الذي نجده في الكلمتين (كفَّ، أكف) والكلمتين(أمنه وأمانه) هذا فضلا عن التلاؤم والانسجام اللفظي الذي نجده بين الفقرات من خلال السجعات اللطيفة في نهايات الفقرات.

«صَلِّ(١) اللّـهُمَّ عَلَى الدَّليلِ(٢) إلَيْكَ فِي اللَّيْلِ الألْيَلِ(٣)» .

بعد أن تعرض الدعاء في الفقرات السابقة إلى تمجيد الله والثناء عليه والإقرار بنعمه المتواصلة، ينتقل في هذه الفقرة إلى الثناء على الرسول محمد صلى الله عليه وآله، وبيان بعض صفاته، والدعاء له ولآل بيته إقرارا بفضلهم، وعرفانا بحقهم، وتثمينا للجهود الكبيرة التي بذلوها من أجل الإنسانية .

تبتدأ هذه الفقرة بالدعاء للنبي صلى الله عليه وآله (صلِّ اللهم على الدليل إليك في الليل الأليل) هذا النبي الذي انقذ الناس من براثن الجهل وأخرجهم من ظلمات الجاهلية، إذ كان سراجا ينير لهم الطريق وسط ذلك الظلام الحالك؛ لأنه كان يستقي ما عنده من مصدر النور الأوحد. وكان

(١) الصلاة: هي الدعاء والرحمة وحسن الثناء من الله على الرسول. ينظر: لسان العرب: ١٤/ ٤٦٤، مادة (صلا).

(٢) الدليل: هو المرشد الذي يَدُلُّك ومنه الدليل عند الملاحين الذي يرشد السفن في مسيرتها. ينظر: المصدر نفسه: ١١/ ٢٤٩، مادة (دلل).

(٣) الليل الأليل: هو ليل شديد الظلمة، ويستعمل في المبالغة كما يقال ظل ظليل. ينظر: المصدر نفسه: ١١/ ٦٠٨، مادة (ليل).

النبي صلى الله عليه وآله مؤهلا لتحمل أعباء الرسالة؛ لأنه كان صنيعة الله، لم يزل ينقل في الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهرة، فكان في أشرف بيت من بيوت قريش، وقد تلقى أدبه من ربه جل وعلا، يقول صلى الله عليه وآله: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)[1]؛ لهذا كان مؤهلا لتلقي نور القرآن، فكان خلقه القرآن كما تنقل إحدى زوجاته، وبذلك صار قدوة وأسوة يقتدى به في القول والعمل، ولم يتأثر بالمكانة الدينية والاجتماعية والسياسية التي خص بها، فكان ثابتا كالطود الشامخ وسط تلك الفتن والإغراءات، ولم تضعف إرادته ولم يثن عزمه كل ما كان يوجهه من صعوبات ومؤامرات في طريق الدعوة ثم ينتقل الإمام للدعاء إلى آل بيت النبي فيصلي عليهم؛ لأنهم المصطفون لإكمال الطريق الذي ابتدأه الرسول صلى الله عليه وآله.

افتتح الإمام (عليه السلام) هذا النص بقوله (صلِّ اللهم على الدليل إليك) والمقصود بالدليل هو الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله وقد طلب الإمام من ربه أن يصلي على النبي وقد سبقه القرآن إلى ذلك إذ قال: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب/ ٥٦]، والصلاة من الله تعني الرحمة ومن الملائكة تعني الاستغفار ومن المؤمنين تعني الدعاء.

استعمل الإمام الكناية في هذه الفقرة ليشير إلى جهاد رسول الله وصبره في صدر الدعوة الإسلامية، إذ كانت الأمة تعيش حياة الجهل والتخلف

(١) بحار الأنوار، للمجلسي: ١٦/ ٢١٠.

والابتعاد عن قيم السماء، فكانت تلك الحقبة من تاريخ الأمة تمثل الجانب المظلم في حياتها، إلى أن جاء رسول السماء لينتشل الناس من أوحال الجهل والتخلف والظلام ويهديهم إلى طريق النور.

وقد وصف الإمام علي (عليه السلام) تلك الفترة التي كان الناس يعيشونها قبل بعثة النبي قد وصفها في إحدى خطبه إذ قال: «إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً (صلى الله عليه وآله) نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ»[1]، وقد تحدثت الزهراء فاطمة بنت رسول الله عن هذا المعنى في خطبتها المشهورة التي ألقتها في مسجد رسول الله، حيث ذكرت فضل أبيها على الناس، قالت (عليها السلام): «ابتعثه الله تعالى إتماما لأمره ... فرأى الأمم فرقا في أديانها عكّفًا على نيرانها عابدة لأوثانها منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله بابي محمد (صلى الله عليه وآله) ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، وأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى السراط المستقيم»[2].

(١) نهج البلاغة: ٦٨.

(٢) بلاغات النساء: ابن طيفور: ٢٦ .

«صَلِّ اللّهُمَّ عَلَى الدَّلِيلِ إِلَيْكَ فِي اللَّيْلِ الأَلْيَلِ» ترسم هذه الفقرة من الدعاء صورة محسوسة تجسد موقعية الرسول صلى الله عليه وآله ودوره في هداية المجتمع من خلال أسلوب الاستعارة، حيث استعار الإمام صورة كانت مألوفة عند العربي في أسفاره وهي صورة الدليل الذي يهدي القوافل التي تسير وسط الصحراء المترامية الأطراف، في ليل غاب عنه نور القمر، ولكن الفارق إنّ ذلك الدليل يدل المسافرين في سفر الدنيا، أمّا رسول الله فإنّه دليل إلى الله في سفر الآخرة، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. والذي يقرأ هذه الفقرة لا يحتاج إلى كثير تأمل وطول تدبر لكي يلحظ ما لصوت (اللام) الذي تكرر سبع عشرة مرة ـ من إيحاء بطول ذلك الليل الذي اشتدت ظلمته.

«وَالْماسِكِ مِنْ أَسْبَابِكَ[1] بِحَبْلِ الشَّرَفِ الأَطْوَلِ» .

تستمر فقرات الدعاء بذكر صفات النبي صلى الله عليه وآله فبعد أن ذكر أنه هو الهادي والدليل الذي يقود الناس إلى ضفة الأمان، ذكر في هذه الفقرة المصدر الذي يستمد منه النبي صلى الله عليه وآله هديه والركن المنيع الذي يحصنه من إن يحيد عن طريق الحق، وهو تمسّكه بالقران الكريم هذا الحبل المتين الذي وصفه أمير المؤمنين في إحدى خطبه حيث قال: «حَبْلًا وَثِيقاً عُرْوَتُهُ وَمَعْقِلًا مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ وَعِزّاً لِمَنْ تَوَلَّاهُ وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ وَهُدًى لِمَنِ ائْتَمَّ

(١) أسباب جمع سبب وهو كل ما يتوصل به إلى الغير. ينظر: لسان العرب: ١/ ٤٥٨، مادة (سبب).

بِه»[1]، لا يضل من تمسك به وأخذ تعاليمه من أهله ومن يعلم تأويله وهم أهل البيت الأطهار، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيها الناس إني تركت فيكم حبلين: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[2].

وإذا رجعنا إلى فقرة الدعاء نجد إن الإمام قد وصف القرآن بأنه (حبل الشرف الأطول) وكلمة الأطول فيها إشارة إلى أن معاني القرآن وأسراره العميقة لاحدّ لها ولا نهاية، فهي باقية ما بقي الدهر، إذ إنّ القرآن دستور عالمي ولا يقتصر على أمةً دون أخرى ولا زمان دون زمان .

وقد استعار الدعاء كلمة (الحبل) ليطلقها على القرآن لما بينهما من وجه شبه في أن التمسك به سبب في للنجاة والخلاص، ونلحظ أيضًا في هذه الفقرة الاختيار الدقيق لكلمة (الماسك) بصيغة اسم الفاعل التي فيها دلالة على التجدد و الحدوث، التي تتلاءم مع حال النبي صلى الله عليه وآله الذي لا يفارق القرآن وهو على تواصل مستمر مع آياته وسوره .

ثم انظر إلى صياغة الفقرة كيف قُدم معمول اسم التفضيل(الأطول) وهو قوله (من أسبابك)، وأُخّر معمول اسم الفاعل (الماسك) وهو قوله (بحبل الشرف الأطول)، ولا يخفى ما في هذا التقديم من عناية واهتمام بكلمة (من أسبابك) وتتأكد تلك العناية في الإضافة الموجودة في الكلمة، حيث أضافها إلى الضمير (الكاف) الذي يعود إلى الذات الإلهية.

(١) نهج البلاغة: ٣١٥.

(٢) بحار الأنوار: للعلامة المجلسي ٢٤ / ٨٣.

«وَالنّاصِعِ[١] الْحَسَبِ[٢] في ذِرْوَةِ[٣] الْكاهِلِ[٤] الأَعْبَلِ[٥]» :

وهذا وصف آخر من أوصاف رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث كان ذا شرف عظيم ونسب رفيع ومجد أصيل فهو بشخصه الكريم كان بتلك الصفات الرفيعة فضلا عن شرف آبائه[٦]، وقوله (عليه السلام) (في ذروة الكاهل الأعبل) كناية عن نجابة رسول الله صلى الله عليه وآله وأصالته وكرمه، وكناية عن شرف آبائه ومجدهم وكرمهم وأصالتهم، فقد كنّى عن تلك الأوصاف الرفيعة بهذه الألفاظ الوجيزة (الناصع، الكاهل، الأعبل) التي امتازت بعذوبتها وسلاستها وفصاحتها[٧].

«وَالثّابِتِ الْقَدَمِ عَلى زَحاليفِها[٨] فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ» :

---

(١) الناصع: هو الخالص الصافي من كل كدر. ينظر: لسان العرب: ٨/ ٣٥٥، مادة (نصع).

(٢) والحَسَبُ: الشَّرَفُ الثابِتُ في الآباءِ، وقيل: هو الشَّرَفُ في الفِعْل، والحَسَبُ: ما يَعُدُّه الإِنسانُ مِن مَفاخِرِ آبائهِ. والحَسَبُ: الفَعالُ الصَّالِحُ. ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٣١٠، مادة (حسب).

(٣) ذروة: هي العلو والرفعة، وذِرْوَةُ كلِّ شيءٍ وذُرْوَتُه: أَعْلاهُ. ينظر: المصدر نفسه: ١٤/ ٢٨٤، مادة (ذرا).

(٤) الكاهل هو أعلى الظهر من العنق ومقدمه . ينظر: المصدر نفسه: ١١/ ٦٠٠، مادة (كهل).

(٥) الأعبل: هو الأبيض من كل شيء. ينظر: المصدر نفسه: ١١/ ٤٢٠، مادة (عبل).

(٦) ينظر: مفتاح الفلاح في شرح دعاء الصباح: السيد محمد كلانتر: ٦١.

(٧) ينظر: المصدر نفسه: ٦٢.

(٨) الزحاليف: جمع زحلوفة و هي المكان المنحدر الأملس. وفي وصفه (عليه السلام) (الثابت القدم على زحاليفها في الزمن الأول) أي قبل النبوة، و الضمير للدنيا و إن لم يجر لها ذكر لمعلوميتها. مجمع البحرين للطريحي: ٥/ ٦٥.

يختتم الدعاء في هذه الفقرة أوصاف النبي صلى الله عليه وآله فيعود إلى وصفه بالثبات والصمود في المواجهة والتحدي، والمحافظة على أعلى درجات الصبر في التزام موقع الحق والصدق، فهو صلى الله عليه وآله مع ما كان يعانيه من مصاعب ومضايقات من قبل أعداء الدعوة في زمنها الأول، بيدأنه كان رابط الجأش قوي العزيمة ثابت الإيمان، لم تثن عزمه المؤامرات والعقبات التي كان قومه يضعونها في طريقه .

يطالعنا في الفقرتين السابقتين أسلوب رفيع في التعبير وذلك في قوله عليه السلام: (الناصع الحسب) و(الثابت القدم) إذ تَبْرز دقة الصياغة التي تكشف عن المعنى المراد، إذ إنّ الإمام لم يعبر عن المعنى بالمبتدأ والخبر، فلم يقل: (حسبه ناصع و قدمه ثابتة) أو (الناصع حسبه و الثابتة قدمه) فقد أعرض عن ذلك واستعمل أسلوب الإضافة اللفظية الذي تصير فيه الكلمتان كالكلمة واحدة، وهذا يعني أن الإمام أراد أن يقول إنه إن كان هناك حسب ناصع فهو حسب رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كانت هناك قدم ثابتة وراسخة فهي قدم رسول الله صلى الله عليه وآله .

«وَعَلى آلِهِ الأَخْيارِ الْمُصْطَفِيْنَ الأَبْرارِ» .

يختم الدعاء النص بالصلاة على آل رسول الله ويصفهم بثلاثة أوصاف، لم تكن لغيرهم مجتمعة، فهم (عليه السلام) (أخيار) تجسدت فيهم صفات الخير، التي مصدرها الإيمان بالله تعالى بأعلى درجاته؛ لأنه إيمان ناتج عن معرفةٍ ودرايةٍ بأهلية الله سبحانه للعبادة. وهم (مصطفون) قد اختارهم الله تعالى لكي يكملوا مسيرة الدعوة إلى الله بعد الرسول، ويحملوا على

عاتقهم مسؤولية هداية الأمة وإنقاذها من الضلال والتيه والانحراف عن الطريق الذي رسمه الله لعباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ [آل عمران/ ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا﴾ [فاطر/ ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى﴾ [النمل/ ٥٩].[1] وهم (أبرار) يعملون البر والخير، وقد

(١) جاء في بحار الأنوار: المجلسي: ٢٨/ ٢٤٧ عن أبي رجاء العطاردي قال لما بايع الناس لأبي بكر دخل أبو ذر الغفاري رضي الله عنه المسجد فقال أيها الناس (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) فأهل بيت نبيكم هم الآل من إبراهيم و الصفوة و السلالة من إسماعيل و العترة الهادية من محمد ص. وفي أمالي الصدوق: ١٥٧ من محاورة محمد بن أشعث بن قيس الكندي مع الإمام الحسين ع قال: يا حسين بن فاطمة أية حرمة لك من رسول الله ليست لغيرك قال الحسين ع هذه الآية (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ) ثم قال و الله إن محمدا لمن آل إبراهيم و إن العترة الهادية لمن آل محمد) وفي الأمالي: ١٥٨ عن أبي جعفر ع في قوله تعالى (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ ...) الآية قال (نحن منهم و نحن بقية تلك العترة). وفي المناقب: ابن شهر آشوب: ٣٨٠ عن ابن عباس في قوله (الْحَمْدُ لله وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى) قال هم أهل بيت رسول الله علي بن أبي طالب و فاطمة و الحسن و الحسين و أولادهم إلى يوم القيامة هم صفوة الله و خيرته من خلقه. وفي وسائل الشيعة: الحر العاملي: ١٣/ ١٨٨ عَنِ الرَّيَّانِ بْنِ الصَّلْتِ عَنِ الرِّضَا ع فِي حَدِيثٍ أَنَّ الْمَأْمُونَ سَأَلَ عُلَمَاءَ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا) فَقَالَتِ الْعُلَمَاءُ أَرَادَ اللهُ بِذَلِكَ الْأُمَّةَ كُلَّهَا فَقَالَ الْمَأْمُونُ مَا تَقُولُ يَا أَبَا الْحَسَنِ فَقَالَ الرِّضَا ع إِنَّهُ لَوْ أَرَادَ الْأُمَّةَ لَكَانَتْ بِأَجْمَعِهَا فِي الْجَنَّةِ. وفي دعائم الإسلام ١/ ٢٣ عن محمد بن علي ع أن سائلا سأله عن قوله (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ) قال إيانا عنى بهذا و السابق منا الإمام و المقتصد العارف بحق الإمام و الظالم لنفسه الشاك الواقف منا و العامة تزعم أنها هي التي عنى الله عز وجل بقوله ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا و لو كان كما زعموا لكانوا كلهم مصطفين و لكانوا كلهم في الجنة كما قال الله عز و جل (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها).

تجسدت فيهم قيم الإسلام وأخلاق القرآن فطبقوا تعاليم السماء وصاروا قدوة وأسوة لمن سواهم في العمل الصالح والدعوة إلى الخير، ولذلك ومن باب العرفان بفضلهم استحقوا أن يدعو لهم الداعي كما يدعو لرسول الله ويصلي عليهم كما يصلي على رسول الله، إذ لولاهم لما كان للدين من اثر.

المبحث الثاني

قَرَعْتُ بابَ رَحْمَتِكَ

«وَافْتَحِ اللّهُمَّ لَنا مَصاريعَ الصَّباحِ بِمَفاتيحِ الرَّحْمَةِ وَالْفَلاحِ، وَأَلْبِسْني اللّهُمَّ مِنْ أَفْضَلِ خِلَعِ الْهِدايَةِ وَالصَّلاحِ، وَأَغْرِسِ اللّهُمَّ بِعَظَمَتِكَ في شِرْبِ جَناني يَنابيعَ الخُشُوعِ، وَأَجْرِ اللّهُمَّ لِهَيْبَتِكَ مِنْ آماقي زَفَراتِ الدُّموعِ، وَأَدِّبِ اللّهُمَّ نَزَقَ الْخُرْقِ مِنّي بِأَزِمَّةِ الْقُنُوعِ، اِلهي إِنْ لَمْ تَبْتَدِئْني الرَّحْمَةُ مِنْكَ بِحُسْنِ التَّوْفيقِ فَمَنِ السّالِكُ بي إِلَيْكَ في واضِحِ الطَّريقِ، وَاِنْ أَسْلَمَتْني أَناتُكَ لِقائِدِ الأَمَلِ وَالْمُنى فَمَنِ الْمُقيلُ عَثَراتي مِنْ كَبَواتِ الْهَوى، وَاِنْ خَذَلَني نَصْرُكَ عِنْدَ مُحارَبَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطانِ فَقَدْ وَكَلَني خِذْلانُكَ إِلى حَيْثُ النَّصَبُ وَالْحِرْمانُ، اِلهي أَتَراني ما أَتَيْتُكَ إِلاّ مِنْ حَيْثُ الآمالِ أَمْ عَلِقْتُ بِأَطْرافِ حِبالِكَ إِلاّ حينَ باعَدَتْني ذُنُوبي عَنْ دارِ الْوِصالِ، فَبِئْسَ الْمَطِيَّةُ الَّتي امْتَطَتْ نَفْسي مِنْ هَواها فَواهاً لَها لِما سَوَّلَتْ لَها ظُنُونُها وَمُناها، وَتَبّاً لَها لِجُرْأَتِها عَلى سَيِّدِها وَمَوْلاها اِلهي قَرَعْتُ بابَ رَحْمَتِكَ بِيَدِ رَجائي وَهَرَبْتُ إِلَيْكَ لاجِئاً مِنْ فَرْطِ أَهْوائي، وَعَلَّقْتُ بِأَطْرافِ حِبالِكَ أَنامِلَ وَلائي، فَاصْفَحِ اللّهُمَّ عَمّا كُنْتُ أَجْرَمْتُهُ مِنْ زَلَلي وَخَطائي، وَاَقِلْني مِنْ صَرْعَةِ رِدائي فَاِنَّكَ سَيِّدي وَمَوْلاي وَمُعْتَمَدي وَرَجائي وَأَنْتَ غايَةُ مَطْلُوبي وَمُناي في مُنْقَلَبي وَمَثْواي» .

كان النص الأول من الدعاء يدور حول ذكر صفات الباري عز وجل والثناء عليه وتمجيده ثم ذكر النبي والصلاة عليه وعلى آله، ثم بعد ذلك يشرع الداعي بطلب ما يريد من ربه فيبدأه بقوله:

«وَافْتَحِ اللّـهُمَّ لَنا مَصاريعَ[1] الصَّباحِ بِمَفاتيحِ الرَّحْمَةِ وَالْفَلاحِ» .

النسق الدعائي في هذه العبارة يُصور لنا الإمام (عليه السلام) حال الداعي وهو يهبّ ليستقبل صباحا جديداً بعد أن أستسلم لنومٍ لذيذٍ قضى به ليلة هادئة أرضى فيها جسده المتعب. وبينما يخيم الظلام على الكون تظهر لنا صورة الإنسان النائم وقد أغلقت الدنيا عليه الأبواب، ولكن الصباح بأنواره الوهاجة سيفتح عليه ما كان مغلقا، لذلك توجه الداعي إلى ربه في أن يفتح عليه أبواب الرحمة، ويقدر له في يومه الجديد الفوز والنجاح في أعماله[2].

وأول ما يطالعنا في هذه العبارة من الدعاء أسلوب من الأساليب البيانية يستعمله الإمام (عليه السلام) ليعبر عن أمور معنوية فيظهرها من خلال الاستعارة وكأنها ماثلة للعيان، فإذا لاحظنا الكلمات (افتح، مصاريع، مفاتيح،) نجدها تشير إلى أمور محسوسة، وقد استعارها الدعاء للتعبير عن إشراقة الصباح وبدء يوم جديد يطلع على الإنسان وهي من الأمور المعنوية، ولكن الدعاء ومن خلال الصياغة اللفظية قد خلع عليها صفات محسوسة، فصارت تلك المعاني صورة متحركة يراها السامع متجسدة أمامه، فكأن الصباح كان يختفي وراء أبواب عظيمة قد أوصدت مصاريعها بإقفال محكمة، لا يملك مفاتيحها إلا خالق الكون والحياة، وبمجرد أن يفتح الباب يلج الإنسان رحمة ربه ولطفه، وبالتالي يحضى بالفلاح والفوز العظيم في الآخرة.

(١) مِصْراعا البابِ: بابان منصوبان ينضمان جميعاً مَدْخَلُهما في الوَسَط من المِصْراعَيْنِ، و صَرَعَ البابَ: جعَل له مِصْراعَيْنِ. ينظر: لسان العرب: ٨/ ١٩٩، مادة (صرع).

(٢) اضواء على دعاء الصباح: ١٥٥.

ولكن إذا كان للرحمة والفلاح مفاتيح من خلالها تعم الخيرات والبركات فما تلك المفاتيح؟

في القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الرحمة ويمكن أن نتعرف إلى مفاتيح الرحمة من خلال جملة من الآيات وفق المحاور الآتية:

طاعة الله وطاعة الرسول مفتاح من مفاتيح رحمة الله. قال تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران/ ١٣٢].

تقوى الله مفتاح من مفاتيح رحمة الله . قال تعالى: ﴿وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام / ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد/ ٢٨].

الاستماع إلى تلاوة القرآن والانصات إليه مفتاح من مفاتيح رحمة الله. قال تعالى: ﴿وَإِذا قُرِئَ القرآن فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٠٤].

إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مفتاح من مفاتيح رحمة الله. قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور/ ٢٦].

الاستغفار مفتاح من مفاتيح رحمة الله: قال تعالى: ﴿قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل/ ٤٦].

الإصلاح مفتاح من مفاتيح رحمة الله. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات / ١٠].

الدعاء مفتاح من مفاتيح رحمة الله. ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف/ ٥٦].

صلاة الليل مفتاح من مفاتيح رحمة الله. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مفتاح من مفاتيح رحمة الله. قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة/ ٢١].

«وَالْبِسْنِي اللّهُمَّ مِنْ أَفْضَلِ خِلَعِ[١] الْهِدايَةِ[٢] وَالصَّلاحِ[٣]» .

تطالعنا في هذه العبارة صورة استعارية جميلةٌ حيث شبّه الإمام الهداية بالثوب الذي يلبس، والهداية من الأمور المعنوية بخلاف الثوب الذي هو من الأمور المحسوسة وتسمى عمليه خلع صفات المحسوسات على الأمور المعنوية بـ(التجسيم) في البلاغة. وكما أن الأثواب على درجات متفاوتة في الحسن، كذلك الهداية فإنها تكون على درجات، فالإمام (عليه السلام) يرشد الداعي إلى أن يطلب من ربه أن يلبسه أفضل أثواب الهداية والصلاح. وان استعمال الإمام

(١) الخلعة: الثوب الذي يعطى منحة . ينظر: لسان العرب: ٨/ ٧٦، مادة (خلع).

(٢) الهداية: الإرشاد، يقال هداه إلى طريق أرشده إليه. ينظر: المصدر نفسه: ١٥/ ٣٥٨، مادة (هدى).

(٣) والصلاح: ضد الفساد وهو السير على الطريق المستقيم. ينظر: المصدر نفسه: ٢/ ٥١٦، مادة (صلح).

لكلمة (خِلع) فيه إشارة إلى أن الهداية أمر يعطى للإنسان من قبل الله ولا يمكن للإنسان أن يسير في طريق الهُدى والحق من تلقاء نفسه لولا هداية الله تعالى له. كما أن العطف بالواو بين الكلمتين يقتضي المغايرة في المعنى فمعنى الهداية هو الإرشاد أو الإيصال إلى الطريق المستقيم، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وأما كَفُورا﴾ [الإنسان/ ٣]. وأما الصلاح فهو ما كان مقابلا للفساد من امور الخير وأعمال البر فالهداية تمثل الإرشاد إلى الطريق المستقيم أما الصلاح فهو السير على ذلك الطريق. وفي مضمون هذه الكلمة ما جاء عن الإمام السجاد في دعاء مكارم الأخلاق، حيث قال: (وَأَلْبِسْنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ فِي بَسْطِ الْعَدْلِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ وَإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ وَضَمِّ أَهْلِ الْفُرْقَةِ وَإِصْلاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَإِفْشَاءِ الْعَارِفَةِ وَسَتْرِ الْعَائِبَةِ وَلِينِ الْعَرِيكَةِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ وَحُسْنِ السِّيرَةِ وَسُكُونِ الرِّيحِ وَطِيبِ الْمُخَالَقَةِ وَالسَّبْقِ إلى الْفَضِيلَةِ وَإِيثَارِ التَّفَضُّلِ وَتَرْكِ التَّعْيِيرِ وَالأفْضَالِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْتَحِقِّ وَالْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَزَّ وَاسْتِقْلالِ الْخَيْرِ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي وَاسْتِكْثَارِ الشَّرِّ وَإِنْ قَلَّ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي)[١].

«وَاغْرِسِ اللّهُمَّ بِعَظَمَتِكَ فيشِرْبِ[٢] جَناني[٣] يَنابيعَ الخُشُوعِ[٤]»

لكي يدرك الإنسان نعم الله تعالى عليه وبالخصوص نعمة الضياء والنور وما تكشف عنه من نعم أفاضها الخالق على الوجود لكي يدرك ذلك فإنه

(١) الصحيفة السجادية: الإمام زين العابدين: دعاء مكارم الأخلاق.
(٢) الشرب: هو المورد من الماء. ينظر: لسان العرب: ١/ ٤٨٨، مادة (شرب).
(٣) الجنان: هو القلب لاستِتاره في الصدر. ينظر: المصدر نفسه: ١٣/ ٩٣، مادة (جنن).
(٤) الخشوع: هو التذلل والخضوع والخوف. ينظر: المصدر نفسه: ٨/ ٧١، مادة (خشع).

يحتاج إلى قلب خاشع متفكر متدبر، لذلك نجد الإمام (عليه السلام) يرشد الداعي إلى أن يطلب من الله تعالى أن يثبت في قلبه الخشوع ليدرك روعة خلقه وعظيم صنعه (وقد اختار الإمام (عليه السلام) القلب ليكون مقرا للخشوع لأنّ القلب هو سيد الجوارح وكلها ترجع إليه وبخشوعه تتبعه بقية الأعضاء، وبذلك يُقبل الداعي على ربه، وينقطع إليه انقطاعا كاملا)[1]، يقول النبي صلى الله عليه وآله وقد رأى شخصاً يُصلي وهو يعبث بلحيته (أما انه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه)[2].

إنّ الإمام يرشد الداعي بحسب ما تقتضيه العبارة أن يطلب من ربه أن يجعل قلبه موطنا للخشوع والخضوع له، ولكنه راعى في هذا الخطاب جهة الكيفية للخشوع وجهة الكمية، أما جهة الكيفية فإنه طلب ممن توجه إليه أن يرسخ هذا الخشوع على نحو يكون كترسيخ الشجرة في الأرض قوية وثابتة، وأما الكمية فإنه يريد من ربه أن يكون الخشوع من الكثرة كما تكون الينابيع التي تخرج مياهها من باطن الأرض.

وعندما نُمعن النظر في عبارة الدعاء هذه سنجد أسلوب الاستعارة بارزاً دون غيره من الأساليب لما يمتلكه من شحن دلالي يُضفي على المعنى روعة وجمالاً، ففي قوله: (واغرس اللهم في شرب جناني ينابيع الخشوع) نجد أن الخشوع من الأمور المعنوية ولكن الدعاء من خلال هذا الاستعمال البياني يضفي عليه معنى حسياً جميلاً من خلال الكلمتين (اغرس، ينابيع) وكأن

(١) أضواء على دعاء الصباح:١٦٩.

(٢) مستدرك الوسائل: النوري: ٥/ ٤١٧.

الخشوع يُغرس في قلب الإنسان كما تُغرس الشجرة في جوف الأرض لتثبت وتنمو فيتفجر ذلك الغرس ينابيعاً من الخشوع كما تتفجر الينابيع بالماء الصافي، ولكنها ينابيع الخوف من كبرياء الله وعظمته.

«**وَأجْرِ اللّهُمَّ لِهَيْبَتِكَ[1] مِنْ آماقي[2] زَفَراتِ[3] الدُّمُوعِ**» .

تأتي هذه العبارة مُكملة للتي قبلها، إذ إنّ هناك ارتباطا خفيا بين خشوع القلب وبين تساقط الدموع من عيني الإنسان. وبما أنّ العيون تختلف من شخص لآخر، فهناك عيون باكية من خشية الله، و هناك عيون جامدة، بسبب الابتعاد عن الله،نجد الإمام هنا يدعو ربه أن يجعل عينيه باكية من خوف الله وهيبته (ولربما كان في البين تلازم بين خشوع القلب والبكاء خوفا من الله سبحانه، فإن من غفل قلبه عن الله لا تدمع عينه من خوف الله لذلك ترى كثيرا ما يأتي الخشوع مقدما على جريان الدمع لما بينهما من الارتباط في هذا المضمار)[4]. وهنيئا لمن خشع قلبه وجرت الدمعة من عينيه فهو دليل على الإيمان ومحل لألطاف الرحمن، حيث تفتح أبواب السماء ويسمع عندئذ الدعاء. ولا شك في أنّ للدمعة دورا كبيرا في تطهير القلب ومحو آثار الذنوب التي تسبب قسوة القلب، فيعود رقيقا يتأثر

(١) الهيبة: و هي الإجلالُ و المَخافة. ينظر: لسان العرب: ١/ ٧٩٨، مادة (هيب).

(٢) الاماقي: جمع موق: وهو طرف العين مما يلي الأنف. ينظر: المصدر نفسه: ١٠/ ٣٣٧، مادة (مأق).

(٣) والزفرات: جمع زفرة، وهي إخراج النفس مع مده عندما يصيب الإنسان حزن أو مكروه. ينظر: المصدر نفسه: ٤/ ٣٢٤، مادة (زفر).

(٤) أضواء على دعاء الصباح: ١٧٣.

بالكلمات التي توقظ فيه روح الإيمان فيستشعر التقصير بين يدي ربه ويرى نفسه وقد قيدتها الذنوب بأغلالها فيهرع إلى ربه الرحيم في طلب مغفرته.

ـ الشاب البكّاء

(حكى منصور بن عمار قال: خرجت ذات ليلة من منزلي ومررت بمنزل فتناهي لي صوت شاب يقول متضرعا: إلهي لم أعصك يا إلهي وأنا قاصد لمخالفتك فقد غلبني هواي وخدعني الشيطان فظلمت نفسي وتعرضت لسخطك علي. فاقتربت من شق في الباب وقرأت بصوت مسموع: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم/ ٦]، فسمعت أنّةً ترتفع خلفي، فلما كان الغد مررت بذلك المنزل فرأيت عجوزا تبكي وتقول كان ابني يبكي كل ليلة من خشية الله وفي الليلة الفائتة كان يناجي ربه فسمع صوتا يقرا آيات العذاب فصرخ وبكى ثم غشي عليه وفارقت روحه بدنه. قلت لها: أنا من فعل ذلك، وقد عرجت روحه إلى عالم البقاء فدعيني أغسله. قالت: هو ذاك فافعل فرفعت عن وجهه قطيفة فوجدت على صدره مكتوب بخط اخضر نحن غسلنا هذا الفتى بماء التوبة»[1].

(١) شرح دعاء كميل: حسين انصاريان: ٢٣٦.

«وَأدِّبِ اللّـهُمَّ نَزَقَ[١] الْخُرْقِ[٢] مِنّي بِأزِمَّةِ[٣] الْقُنُوعِ» .

عجيبٌ هذا الترابط الذي يُلحظ بين عبارات الدعاء إذ نجد أن كل عبارة تعتمد على التي سبقتها وتترتب عليها. ففي هذه العبارة يرشد الإمام الداعي إلى أن يطلب من ربه بعد أن غرس في قلبه الخشوع وأجرى من عينه الدموع يطلب منه أن يصرف نفسه عن الصفات الخبيثة والأفعال الدنيئة التي تمنع الإنسان من الوصول إلى الكمالات، والتي تُسبب عدم تملك الإنسان زمام نفسه، فالإنسان بطبعه إذا حصل في نفسه الخشوع وجرت دموع عينيه يعيش حالة من الاستقرار النفسي والهدوء والسكينة والاتزان فيكون أكثر تعقلا للأمور واقرب إدراكا للأشياء.

ولو رجعنا إلى فقرة الدعاء سنلاحظ الكلمات التالية: (أدب)، (نزق الخرق)، (أزمة القنوع) ولنأخذ كلمة (نزق الخرق) فإن النزق هو الطيش والخفة التي تُصيب الإنسان نتيجة (الخرق) الذي هو الجهل والحمق ونلحظ أيضا أنّ الكلمتين جاءتا بصيغة المضاف والمضاف إليه فأصبحتا كالكلمة الواحدة، وبما أنّ حالة الطيش الناتج عن الجهل تحتاج إلى علاج وإصلاح فما هو السبيل إلى إبعاد الإنسان عن هذه الحالة وبعبارة كيف يكون التأديب؟ يأتي الجواب من الإمام (بأزمة القنوع)على قاعدة (أن العلاج لابد أن يكون من جنس المرض) فالأمراض المادية تحتاج إلى علاج مادي أما الأمراض

(١) نزق الرجل: طاش وخف عند الغضب. ينظر: المصدر نفسه: ١٠/ ٣٥٤، مادة (نزق).

(٢) الخُرق: الجهل والحمق. ينظر: المصدر نفسه: ١٠/ ٧٣، مادة (خرق).

(٣) الأزمّة جمع زمام وهو المقود لكل حيوان. المصدر نفسه: ١٢/ ٢٧٢، مادة (زمم).

الروحية فتحتاج إلى علاج روحي فيأتي العلاج (أزمة القنوع) بالصياغة نفسها وهى صيغة المضاف والمضاف إليه وبأسلوب اللف والنشر المرتب حيث جاءت كلمة أزمة علاجا للنزق وكلمة القنوع علاجا للخرق وهو من عجيب البيان عند أمير المؤمنين علي (عليه السلام) ولكن المُلفت للنظر أنّ الإمام جاء بلفظة (أزمّة) بصيغة الجمع ولم يفعل ذلك في كلمه (القنوع) فلماذا جاءت الأولى بصيغة الجمع وجاءت الثانية بصيغة المفرد؟

أن كلمة (أزمّة) هي جمع زمام والزمام هو مُقود الدابة فلا يمكن السيطرة على الدابة إلّا بالإمساك بزمامها والسيطرة عليه وخصوصا في حال هياجها. وقد وظف الإمام (عليه السلام) هذه الصورة المألوفة لدى العربي في بيان مراده، إذ شبه النفس الإنسانية بالدابة الجموح التي لا يمكن السيطرة عليها إلا بإمساك زمامها ولّما كانت النفس الإنسانية الأمارة بالسوء يصعب السيطرة عليها، لما فيها من حب للشهوات، وكل شهوة من تلك الشهوات تحتاج إلى ما يقيدها ويكبح جماحها؛ لذلك فإن الإنسان يحتاج إلى أكثر من زمام لكي يُسيطر على هذه النفس. وهذه الأزمة مصدرها القنوع الذي هو الرضا والتسليم بما قسم الله تعالى وهو أمر لازمٌ لوصول الإنسان إلى حالة العقلانية وأدراك الأشياء على حقيقتها. فكلما كان الإنسان عاقلاً كان قنوعاً. ويُلحظ أن الإمام (عليه السلام) لم يستعمل كلمة (قناعة) علماً إنها (مصدر) أيضا فلم يقل (أزمة القناعة) لما فيها من معنى التأنيث الذي يُشير إلى الضعف الذي لا ينسجم مع حالة الصراع مع النفس والتي تحتاج إلى إرادة صلبة وعزيمة لا تلين من اجل ردعها لذلك أستعمل الدعاء كلمة، (القنوع) لأنها أبلغ في تأدية المعنى المُراد.

«إلــهي إنْ لَمْ تَبْتَدِئـنـي الرَّحْمَـةُ مِنْـكَ بِحُسْـنِ التَّوْفيـقِ(١) فَمَنِ السّـالِكُ بي إلَيْـكَ في واضِـحِ الطَّريقِ».

في هـذه الفقـرة مـن الدعـاء حـدث تغيير أسـلوبي في طريقـة الأداء حيث كانـت العبـارات (وافتـح اللهـم، ألبسـني اللهـم، واغـرس اللهـم، واجـر اللهـم، وأدب اللهـم) أمـا في هـذه الفقـرة كان الافتتـاح بكلمـة (إلهـي) وكأن الداعـي قـد وصـل إلى مرحلـة الـذروة في الانكسـار والخضـوع، ويُفهـم ذلـك مـن كلمـة (إلهـي) إذ نجد أنها بلسـان الداعـي تحمل إيحاءً بالرقة والتذلـل والخضوع والضراعة بين يـدي الله تعالى.

يبـدأ الإمـام فقـرة الدعـاء بانكسـار العبـد المسـكين الـذي انقطعـت بـه السـبل ولم يجد ملجـأ يـأوي إليـه سـوى رحمـة ربـه وحنانـه. فيطلـب منـه بأسـلوب رقيـق جميـل قـد مـزج فيـه بـين الـشرط والاسـتفهام الـذي خـرج إلى التعجـب في عبـارة مُتناسـقة مُنسـجمة بألفـاظ قـد اختـيرت بدقـة عاليـة، وقـد تضافـرت واشـتركت علـوم العربيـة مـن البلاغـة والنحـو والـصرف والمُعجـم في صياغـة هـذه التُحفـة الفنيـة فخرجـت بأبهـى حُلتهـا في عبـارات هـذه الفقـرة. ففـي هـذه العبـارة تجـد أسـلوب التشـخيص واضحـا في قـول الإمـام (عليه السـلام) (إن لم تبتدئنـي الرحمة منك بحسـن التوفيـق) فقـد خلـع عـلى (الرحمـة) وهـي مـن الأمـور المعنويـة صفـة مـن الصفـات الإنسـانية وهـي (الابتـداء بحسـن التوفيـق). ونجـد أيضـا اختيـار الصياغـة النحويـة وتركيـب الـكلام بأسـلوب مقصـود في الكلمتـين (حسـن

(١) التوفيـق: هـو تهيئـة الأسـباب، و وَفَّقـه الله سـبحانه للخـير ألهمـه فعلـه. ينظـر: لسـان العـرب: ١٠/ ٣٨٣، مـادة (وفـق).

التوفيق) و(واضح الطريق)، إذ جاء بها بصيغة المضاف والمضاف إليه ولم يأت بصيغة الموصوف مثلا فلم يقل: (إن لم تبتدئني الرحمة بالتوفيق الحسن فمن السالك بي إليك في الطريق الواضح) ولو جاء بها كذلك لما كان الكلام بهذا الحسن الذي عليه الآن، ولذهب ذلك الانسجام النغمي في العبارة. ولو ألقينا نظرة على كلمة (السالك) وما تحمله من دلالات من خلال موقعها في السياق لوجدنا أنها تشير إلى أن عملية الإرشاد إلى الطريق الحق التي سبق الكلام عليها، غير كافية في نجاة الإنسان، فلا يكفي أن يعرف الإنسان طريق الحق، بل لابد أن يسير على هذا الطريق. وإنّ عملية السير تحتاج أيضاً إلى توفيق، لذلك نجد الإمام (عليه السلام) في العبارة الثانية من الفقرة الأولى يذكر الصلاح معطوفا على الهداية في قوله (وألبسني اللهم من أفضل خلع الهداية والصلاح) فكلمة (السالك بي) كأنها تصور حالة ذلك الأعمى الذي يحتاج إلى من يقوده ليوصله إلى هدفه الذي ينشده.

«وَإنْ أسْلَمَتْني[1] أناتُكَ[2] لِقائِدِ[3] الأمَلِ وَالْمُنى فَمَنِ الْمُقيلُ[4] عَثَراتي مِنْ كَبَواتِ[5] الْهَوى» .

بعد أن أرشد الإمام (عليه السلام) الداعي إلى أن يطلب من ربه التوفيق

(١) اسلَمَ فلان فلانا إذا ألقاه في مهلكة ولم يحميه من مكروه. لسان العرب: ١٢/ ٢٩٢، مادة (سلم).
(٢) الأناة: الحلم والمراد به هنا تأخير العقوبة والاستدراج. ينظر: المصدر نفسه: ١٥/ ٤١٦، مادة (وني).
(٣) القائد: هو من يأخذ بقيادة الدابة ينظر: المصدر نفسه: ٣/ ٣٧٠، مادة (قود).
(٤) الإقالة: بمعنى التجاوز عن الذنب. ينظر: المصدر نفسه: ١١/ ٥٨٠، مادة (قيل).
(٥) الكبوات: جمع كبوة وهي السقطة. ينظر: المصدر نفسه: ١٥/ ٢١٣، مادة (كبا).

في الأخذ بيده في طريقه القويم، فإنّ الخوف من ذنوبه يقطع عليه أمل الاستجابة ولو بما كان نصيبه الحرمان من التوفيق وحينئذ يتركه الله سبحانه ويسلمه إلى آماله العريضة وأمنياته الخلابة، فيجد العبد من حلم ربه وتأخير العقوبة ما يحرف سفينته عن شاطئ الأمان، فتكثر عثراته ويسيطر الشيطان عليه بتغلب هوى نفسه على عقله، وحينئذ فمن الذي يتجاوز عنه ويقبله ويحميه من هذه العثرات؟

ولو تأملنا في عبارة الدعاء هذه سنجد من عجيب الصنعة البيانية ما تحار فيه العقول وتعجز عن وصفه الألسن وما لا نجد له مثيلا إلا في كلام الله تعالى. ففي قوله عليه السلام: (أسلمتني أناتك) نجد صورة مجازية جميلة تستعمل فيها الاستعارة ويتحرك فيها عنصر التشخيص ليضفي على الأمر المعنوي وهو الإمهال صفة حسية من الصفات الإنسانية ويتكرر هذا الاستعمال في قول الإمام (عليه السلام) (قائد الأمل) و(كبوات الهوى) ومما يسهم في جمال الصورة وإبراز عنصر التشخيص هو الإتيان بالتركيب بصيغة (المضاف والمضاف إليه). وأما اختيار الألفاظ فقد جاءت كلمات الدعاء في هذه العبارة بما ينسجم ويتلاءم ومراده المعنوي، وكذلك بما يتلاءم مع الشكل الخارجي والنغم الصوتي، ونجد ذلك في قول الإمام عليه السلام: (تبتدئني الرحمة، أسلمتني أناتك) وكذا (فمن السالك بي، فمن المقيل عثراتي) فقال (أناتك) ولم يقل (إمهالك) ليلائم بين العبارتين، وهذا التلاؤم والانسجام بين الكلمات يمنح العبارة والفقرة انسجاما وتوازنا نغميا يحسن في السمع وقعه ويسهل على اللسان نطقه .

«إِنْ خَذَلَني[1] نَصْرُكَ عِنْدَ مُحارَبَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطانِ فَقَدْ وَكَلَني[2] خِذْلانُكَ إلى حَيْثُ النَّصَبُ[3] وَالْحِرْمان» .

في العبارة السابقة وما قبلها رأينا الإمام (عليه السلام) يرشد الداعي إلى أن يطلب من ربه التوفيق في مسيرته إليه، وأن لا يسلمه إلى آماله وأمنياته. ويفترض الداعي نفسه بعد كل ذلك وقد اتجهت نفسه إلى الله في مسيرتها وكبحت جماحها وإنها ستقف وجها لوجه أمام الشيطان في معركة حامية الوطيس، فالشيطان لا يدع الفرصة تفوت عليه وهو يرى العبد مطيعا لربه، يخلص في عمله إلى رحابه الطاهرة، بل سيحاربه بكل وسائله المُغرية وأكاذيبه وحيله ليصرفه عن القصد، وينحرف به عن الطريق المستقيم. والإنسان مهما أُوتي من عقل وتدبير، إلا إنه يبقى إنسان له شهوات وغرائز كلها منافذ يطل الشيطان من خلالها على ما تنطوي عليه نفسه، وهل بإمكانه أن يقف في الميدان وحيداً يُصارع مثل هذا العدو اللدود؟

جاء الإمام (عليه السلام) ليرشد الداعي إلى أن يطرح المشكلة ويضعها أمام ربه. جاء ليقول له: ها هو مصيري أضعه أمامك فإن خذلني نصرك عند حاجتي إليه في معركتي مع النفس والشيطان (فقد وكلني خذلانك إلى حيث النصب والحرمان) نصب وتعب لأنه يسلك طريقاً قائده في تلك المسيرة هو الشيطان، وحرمان من عطف الله ولطفه وبُعدٌ عن قربه جلت عظمته.

(١) خذله: أي ترك نصره وإغاثته. ينظر: المصدر نفسه: ١١/ ٢٠٢، مادة (خذل).
(٢) وكَلَ: ترك الأمر وأسلمه إليه وفوضه إليه. ينظر: المصدر نفسه: ١١/ ٧٣٤، مادة (وكل).
(٣) النصب: هو التعب والمشقة. ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٧٥٨، مادة (نصب).

وفي هذه العبارة يتكرر الاستعمال المجازي الذي يتخذ من الاستعارة أداة له، ونجد ذلك في قول الإمام (عليه السلام) (خذلني نصرك) حيث شبه النصر بالإنسان وأسند له فعل من أفعاله وهو قوله (خذلني)، وكذا في قوله عليه السلام: (مُحاربة النفس والشيطان) حيث صورة النفس والشيطان بصورة الفارس الذي شحذ أسلحته وتجهز للحرب مع الإنسان،وهي صورة في غاية الروعة والجمال، وقد كان للتشخيص الدور الأكبر في إبرازها. وتجد الأسلوب ذاته يتكرر في قوله عليه السلام: (فقد وكلني خذلانك)، إذ خلع على الأمر المعنوي (الخذلان) صفة إنسانية وأسند له الفعل (وكلني). إن هذا الأسلوب في تركيب الكلمات داخل العبارة ليس لأيٍّ كان أن يأتي بمثله أو يسلك مسلكه، إذ إنّ هذه الاستعارات الدقيقة التي حوتها عبارات الدعاء قد صيغت بشكل متفرد لا نضير له إلا في كلام الله تعالى؛ لأنّ هذا الفن لا يعرفه ولا يصل إليه إلا من امتلك طبعا سليما وذهنا صافيا وعقلا نافذا.

«اِلهي أتَراني ما أتَيْتُكَ إلاّ مِنْ حَيْثُ الآمالِ أمْ عَلِقْتُ بِأطْرافِ حِبالِكَ إلاّ حينَ باعَدَتْني ذُنُوبي عَنْ دارِ الْوِصالِ» .

الذي أحسبه أن الاستفهام في كلمة (أتراني) قد خرج عن معناه الحقيقي إلى التعجب والإنكار، فالإمام (عليه السلام) يرشد الداعي إلى أن يتعجب من حاله هذه، حيث ابتعد عن ساحة القرب الإلهي، وراح يسعى وراء الآمال الدنيوية العريضة، فهو ينكر على نفسه فعلها هذا، وكذا الكلام فيما بعد (أم) المُعادلة، فتقدير الكلام: أتراني ما علقت بأطراف حبالك إلا حين باعدتني ذنوبي عن دار الوصال. والمُراد من الحبال: هو الأسباب التي يتمسك بها الإنسان للوصول

إلى رضا الله من الدعاء والعبادة. فالإمام يرشد الداعي إلى أن يعجب من نفسه كيف أنّها لم تلتفت إلى التمسك بأسباب الوصول إلى دار القرب إلى الله إلا بعد أن اقترفت الذنوب التي أبعدته عن ساحة القرب الإلهي، وقد ورد مثل هذا المعنى أي خروج الاستفهام إلى معنى التعجب في كتاب الله المجيد في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة/ ٢٨]. إذ نجد أن الاستفهام فيها يفيد إنكار الكفر والتعجب من وقوعه[1]. ومثله قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُه﴾ [آل عمران/ ١٠١].

يرشد الإمام (عليه السلام) الداعي في هذه العبارة من الدعاء أن يضع نفسه موضع المُذنب الذي قصر بحق سيده فيتعجب منها كيف أنها كانت غارقة في بحر الأمل والهوى، ولم تلجأ إلى ما يقربه إلى الله تعالى إلا عندما ابتعدت بها الذنوب عن دائرة القرب واللطف الإلهي وعن دائرة رضوان الله تعالى.

إذا عُدنا إلى قول الإمام عليه السلام: في هذه العبارة (أم علقت بأطراف حبالك) وقوله عليه السلام: (باعدتني ذنوبي) فسنجد استعمالين مجازيين قائمين على الاستعارة، حيث شبه الأسباب الموصولة إليه سبحانه بالحبال التي يتمسك بها للنجاة، ومما زاد الصورة جمالاً أنّه جعل لتلك الحبال أطرافاً يتمسك بها من يريد النجاة. أما في قوله (باعدتني ذنوبي) فقد أسند إلى الأمر المعنوي وهو (الذنوب) فعلاً من الأفعال التي تُسند إلى العُقلاء، مما أعطاها صورة حسية يطغى عليها عنصر الحركة واضحاً جلياً.

(١) علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية د. بسيوني عبد الفتاح: ١٨.

ولا يخفى على القارئ الكريم الاختيار الدقيق للألفاظ في هذه العبارة، فقد جاءت ألفاظُها مُتناسقة منتظمة ولو حاولنا من باب التجربة أن نرفع أحدى كلماتها ونضع بدلاً منها كلمة أخرى، لذهب الانسجام والتآلف الذي وصُفت به العبارة.

«فَبِئْسَ الْمَطِيَّةُ الَّتي امْتَطَتْ نَفْسي مِنْ هَواها، فَواهاً لَها لِما سَوَّلَتْ[1] لَها ظُنُونُها وَمُناها، وَتَبّاً لَها لِجُرْأَتِها عَلى سَيِّدِها وَمَوْلاها» .

يرشد الإمام (عليه السلام) الداعي إلى أن يشكو إلى ربه ما حل به من انقياد إلى مطية الهوى، تلك الدابة التي تُسرع بركابها إلى المهالك، وهو يتعجب من نفسه حيث سارت به فيما تسوله له من الأمنيات الكاذبة والآمال العريضة بعيداً عن ساحة قربه سُبحانه.

ويتكرر الأسلوب المجازي الذي صرنا نجده في كل عبارة من عبارات الدعاء، وهو إن دل على شيء إنما يدل على المِكْنة اللغوية والمهارة الفائقة في صياغة الكلام، هنا يأتي أسلوب الاستعارة ليُظهر لنا النفس الإنسانية وقد امتطت تلك الدابة السريعة التي تقودها إلى المهالك. ونجد الأسلوب نفسه يتكرر في قوله عليه السلام: (سولت لها ظنونُها ومُناها)، إذ أسند فعل التزيين إلى المُنى والظنون وكأن الظنون والمُنى هي التي زينت للإنسان ارتكاب ما يُسخط الله تعالى.

---

(١) سَوَّلَتْ له نفسه كذا: زَيَّنَتْه له، و سَوَّل له الشيطانُ: أَغْواه. ينظر: لسان العرب: ١١/ ٣٥٠، مادة (سول).

ولا يخفى على الجميع هذا التوظيف الدقيق لصوت (الهاء) في العبارة فقد تكرر أحدى عشرة مرة ليرسم لنا من خلال النغم الصوتي والجو الإيحائي الذي يُوفره صورة العبد المُذنب الذي وقف في حضرة سيده وقد شعر بالندم والحسرة على كل ما اقترفت يداه من ذنوب فهو لا ينفك يتحسر ويتأوه على ذلك.

«**الهي قَرَعْتُ بابَ رَحْمَتِكَ بِيَدِ رَجائي**» .

يُصور لنا الإمام حالة الداعي وقد وقف بباب سيده حاملاً أوزاره على ظهره من ذنوب قد أدبرت لذاتُها، وخطايا قد بقيت تبعاتها وما ذاك إلا نتيجة لتسليمه زمامه لنفسه التي قادته نحو الآمال والأمنيات الكاذبة، مع هذا كله جاء هذا العبد ويحمله رجاء كبير بأن تناله رحمة ربه، فوقف متذللاً مُتخشّعاً أمام باب رحمة ربه لقرعه بيدٍ يملأها الرجاء في أن يفتح ذلك الباب، يقف الداعي وهو يترنم بأبيات الشاعر:

مالي سوى قرعي لبابك حيلةٌ ... فإذا رُددتُ فأيُّ بابٍ أقرعُ

وعندما نقرأ عبارة الدعاء هذه نجد الكلمات تتحرك لتخط لنا لوحة جميلة وكأنها ريشة فنانٍ ترسم لنا صورة ذلك العبد حينما يقف على باب سيده مُطأطئاً رأسه، يطرق الباب وكله أمل أن يُفتح له.

و أَحْسَبُ أن القارئ الكريم يتفق معي في أن الكلمات التي أختارها الإمام كان لها بالغ الأثر في إثراء المعنى، من خلال وقعها الصوتي الذي ساهم في تجسيد المعنى بصورة حسية، فعندما نسمع كلمة (قرعتُ) في هذا السياق

يخيل إلينا من خلال جرس أصواتها أننا نسمع في آذاننا صوت قرع الباب، وعندما نسمع كلمة (باب رحمتك) تقفز إلى أذهاننا صورة باب كبير موصد، قد وقف أحدهم أمامه وهو يطرق الباب بيده. ولكننا نُفاجأ بعد ذلك حين نسمع كلمة (بيد رجائي) إنه لم يكن يطرق ذلك الباب بيده المادية، وإنما بيدٍ معنوية هي يد الرجاء والأمل.

ـ قصة نافعة.

وهناك قصة نافعة ومؤثرة أحببت أن أذكرها في هذا المقام، فقد حكى أحد العرفاء عن أم طردت ابنها الشاب لعقوقه وأذاه وإعراضه عن النصيحة. قالت له: اخرج فلست ابني. ويخرج الفتى ليمضي وقته مع الفتيان، إلى أن حان وقت الغروب فراحوا يعودون أدراجهم إلى بيوتهم، ولم يعطف عليه أحد منهم. ولما ظل وحيدا، ولم يرَ وفاءً من رفاقه، عاد إلى منزله فرأى الباب مسدودا، راح يطرق الباب ويبكي ويتضرع ويتوسل إلى أمه أن تفتح له الباب، ولكنّ أمه امتنعت عن ذلك. وفيما هو يتضرع ويبكي مرّ عالم تقي فأشفق على الفتى، فطرق الباب وتشفع للفتى الشاب عند الأم لتفتح الباب. قالت الأم: أيها المحترم أقبل شفاعتك بشرط أن تكتب لي عهدا إن عقني بعدها وآذاني أن يخرج من البيت ولا يدعوني أمه. فكتب الرجل التقي لها ذلك العهد وتصالح الابن مع أمه.

ومرت أيام وذات يوم مرّ العالم التقي فوجد الفتى عند الباب يتضرع ويقول: أماه كوني ما شئت وافعل بي ما شئت ولكن لا تغلقي دوني الباب ولا تطرديني.

ولكنّ الأم أصرّت على عدم فتح الباب، وقالت: لن افتح لك الباب ولن أدعك تدخل البيت، ولن أتصالح معك ولن أرضَ عنك. وفكّر الرجل الصالح أن يجلس جانبا ليرى عاقبة الأمر، فرأى الفتى يجهش بالبكاء ويعلن ندمه على ما بدر منه إلى أن غشي عليه، وانقطع صوته. وأطّلت الأم لترى ما حل بابنها. فلما رأت ذلك فارت عاطفة الأمومة، ففتحت الباب ورفعت رأس ولدها عن التراب ووضعته في حجرها وراحت تمسح عن رأسه التراب وتقول: يا قرة عيني! انهض لتدخل البيت. إني وإن أغلقت دونك الباب فلم يكن مرادي طردك، بل كنت أريد تأديبك لتعود إلى دائرة الطاعة!!

أقول إذا كانت عاطفة الأم تتجاوز غضبها عليه فترحمه وتعفو عنه إذا تاب وندم على ما فرط منه، كيف بخالقه وربه الذي أوجده من العدم ورباه وغذاه وأنعم عليه، أ فتراه لا يرحمه إذا تاب وندم وتضرع إليه وناجاه وبكى في حضرته؟! بلى سيفتح له أبواب رحمته لأنه هو التواب الرحيم. فينبغي للعبد أن يستشعر التقصير بحضرة ربه ويتصور حاله، ماذا لو كان مطرودا من رحمته، ماذا لو اغلق الباب دونه؟! هذا المعنى نجده عند سيد الساجدين الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) عندما يقول في دعائه الذي علمه أبا حمزة الثمالي: «سَيِّدي لَعَلَّكَ عَنْ بابِكَ طَرَدْتَني، وَعَنْ خِدْمَتِكَ نَحَّيْتَني أو لَعَلَّكَ رَأَيْتَني مُسْتَخِفّاً بِحَقِّكَ فَأَقْصَيْتَني، أو لَعَلَّكَ رَأَيْتَني مُعْرِضاً عَنْكَ فَقَلَيْتَني، أو لَعَلَّكَ وَجَدْتَني في مَقامِ الْكاذِبينَ فَرَفَضْتَني، أو لَعَلَّكَ رَأَيْتَني غَيْرَ شاكِرٍ لِنَعْمائِكَ فَحَرَمْتَني، أو لَعَلَّكَ فَقَدْتَني مِنْ مَجالِسِ الْعُلَماءِ فَخَذَلْتَني، أو لَعَلَّكَ رَأَيْتَني فِي الْغافِلينَ فَمِنْ رَحْمَتِكَ آيَسْتَني، أو لَعَلَّكَ رَأَيْتَني آلِفَ مَجالِسِ

الْبَطّالِينَ فَبَيْني وَبَيْنَهُمْ خَلَّيْتَني، أو لَعَلَّكَ لَمْ تُحِبَّ أَنْ تَسْمَعَ دُعائي فَباعَدْتَني، أو لَعَلَّكَ بِجُرْمي وَجَريرَتي كافَيْتَني، أو لَعَلَّكَ بِقِلَّةِ حَيائي مِنْكَ جازَيْتَني». ولكن مع هذا كله نجد الإمام السجاد يقول: «فَوَعِزَّتِكَ لَوِ انْتَهَرْتَني ما بَرِحْتُ مِنْ بابِكَ، وَلا كَفَفْتُ عَنْ تَمَلُّقِكَ لِما أُلْهِمَ قَلْبي مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِكَرَمِكَ وَسَعَةِ رَحْمَتِكَ»[1].

«وَهَرَبْتُ إلَيْكَ لاجِئاً مِنْ فَرْطِ أهْوائي» .

يُصور لنا الدعاء حالة الداعي عندما يتفكر بالمصير المظُلم الذي ينتظره وهو يرى نفسه قد أصبحت بعيده عن خالقها، عند ذلك تتملكه حالة من الخوف والرعب فيفرُ هارباً ولكن لا يدري إلى أين، شأنه شأن كل هارب خائف يطلق لقدميه العنان لينجو بنفسه، ولكنه يُفاجأ بأن الأبواب أصبحت كلها مُغلقة بوجهه إلا بابا واحدا يراه مفتوحا بوجه اللاجئين، هذا الباب هو باب رحمة الله وباب لطفه وكرمه[2].

«وَعَلَّقْتُ بِأطْرافِ حِبالِكَ أنامِلَ وَلائي» .

يصور لنا الإمام (عليه السلام) عبر الدعاء حال الإنسان الذي غرق في بحر الأهواء والمعاصي، وقد لاح له حبل النجاة الذي سينقذه من الهلاك، فسارع إلى الإمساك به ولكن ليس لكل أحد أن يمسك بهذا الحبل إلا من عرفه وأدرك أنه هو السبيل الموصل إلى رضا الله تعالى.

---

(١) الصحيفة السجادية: الإمام السجاد: دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) ينظر: أضواء على دعاء الصباح: ٢٣٢.

ونلحظ في العبارة أن الإمام (عليه السلام) أستعمل كلمة (أنامل) ولم يستعمل كلمة أصابع ولعل في ذلك إشارة إلى ما اكتشفه العلم الحديث من أن البصمات التي في أنامل اليد لا تتشابه فيما بينها، فكل إنسان يمتلك بصمة لا يشبهه فيها غيره، وإذا ما طبعت هذه البصمة على شيء فإنها تكون علامة على صاحبها ودليلاً عليه، وبذلك فإنّ هذا الإنسان إن كان قد عرف قدر أهل البيت وتمسك بنهجهم، فإنه سيثبت بصمته في سجل الموالين لرسول الله وآله الأطهار إن سار على هديهم، ولذا فإنه حينما يتوسل إلى الله تعالى بهم، وبموالاته لهم، فإن تلك البصمة التي أثبتها في ذلك السجل ستنفعه، فينال الشفاعة يوم القيامة إن شاء الله تعالى.

وتجدر الإشارة إلى الاستعمال المجازي في كلمة (أنامل ولائي) إذ عمد الإمام إلى تشبيه الولاء بالإنسان ثم جعل له أنامل كما للإنسان أنامل ثم شبه عملية تعلق الإنسان بالأسباب الموصلة إلى الله سبحانه بعملية تعلق أنامل يد الإنسان بحبل النجاة إذا سقط في هاوية وأراد النجاة. إنّ هذا النوع من الاستعارة فنٌ لا يتيسر لغير الإمام (عليه السلام) الخوض فيه بهذا الشكل البديع.

«فَاصْفَحِ اللّهُمَّ عَمّا كُنْتُ أجْرَمْتُهُ مِنْ زَلَلي وَخَطائي، وَاَقِلْني[1] مِنْ صَرْعَةِ رِدائي».

يصور الدعاء حالة الداعي الذي قرع باب رحمة ربه بيد رجائه وهرب إليه لاجئاً من هوى نفسه، فيشفع إليه بولاية أهل بيته، ولابد لنا من أن

(١) أَقال الله فلاناً عَثْرته بمعنى الصَّفْح عنه. ينظر: لسان العرب: ١١/ ٥٨٠، مادة (قيل).

نفترض أن الله تعالى قد قبل منه هذا التضرع ومنحه اللجوء إلى ساحة قدسه. فما هي طلباته؟ وماذا يريد من وراء تقلبه على باب رحمة ربه ؟ فيتقدم الداعي ليرفع يديه كهيئة السائل الفقير وهو يقول (فاصفح اللهم...) هذا هو معنى التوبة والعود إلى قدس الله وروحه، فراح يطلب الصفح عمّا كان قد اقترفه من معاصي وذنوب.

والذي يلفت النظر أن الإمام (عليه السلام) قد نبَّه الداعي فاختار الكلمات بدقة مُتناهية، إذ عبّر بقوله (كنت أجرمته) الذي يشير إلى الماضي البعيد المُنقطع، وكان بإمكانه أن يقوله (أجرمته) فلماذا أستعمل التعبير الأول وأعرض عن الثاني؟!

وكذا نجده (عليه السلام) قد توخى الدقة في استعماله للكلمتين (زللي، وخطائي) فلم يقل (زلتي وخطأي) لأنه أراد أن يعبر عن كثرة الذنوب والمعاصي التي تصدر من الإنسان، أما قوله (وأقلني من صرعة ردائي) نلاحظ أنّه (عليه السلام) لم يقل (صرعات)؛ لأنّ الإنسان إذا لبس ثوب الكبر فإنه يسقط سقطة تكون سبباً للذنوب الكثيرة والمعاصي الجمة، ولن ينهض من تلك الصرعة إلا إذا تخلى عن رداء الكبر ولبس ثوب التواضع والذل بين يدي الله تعالى.

وما أجمل التعبير الذي صاغه الإمام بقوله (صرعة ردائي) حيث أضفى على (الرداء) وهو من الجمادات ـ صفة إنسانية منحته الحياة والحركة، وكأنه هو الذي صرع الإنسان.

«فَإِنَّكَ سَيِّدي وَمَوْلاي وَمُعْتَمَدي وَرَجائي وَاَنْتَ غايَةُ مَطْلُوبي وَمُناي في مُنْقَلَبي وَمَثْوايَ» .

يريد الإمام (عليه السلام) أن يرشد الداعي في هذه العبارة إلى أن يذكر الأسباب التي جعلته يشرع بهذه المطالب العديدة (فانك سيدي) وسيد القوم وكبيرهم هو الذي يتجاوز إذا صدر تقصير من بعض أتباعه فكيف بمن وسم نفسه (بالرحمن وبالعفو) ثم ذكر (عليه السلام) الأسباب الأخرى لتلك المطالب بقوله: (ومولاي) فمن يعفو عن العبد الآبق سوى سيده ومولاه؟ (ومعتمدي ورجائي) فأنت من أعول عليه، وأرجوه في التجاوز عن جُرمي، ومن أرجوه في كل حوائجي الدنيوية والأخروية (وأنت غاية مطلوبي ومناي) والغاية هي نهاية ما يقصده الإنسان في مطالبه وأمنياته وقد جعل الداعي ربه غايته في الدنيا والآخرة (في مُنقلبي ومثواي) فإن غاية ما يطلبه الإنسان هو الأمان يوم لا أمان إلا أمانه سبحانه.

المبحث الثالث

وَبابُكَ مَفْتُوحٌ

«الـهي كَيْفَ تَطْرُدُ مِسْـكيناً الْتَجَـأَ إلَيْكَ مِنَ الذُّنُـوبِ هارِباً، أمْ كَيْفَ تُخَيِّـبُ مُسْتَرْشِـداً قَصَـدَ إلى جَنابِـكَ سـاعِياً، أمْ كَيْفَ تَـرُدُّ ظَمآنـاً وَرَدَ إلى حِياضِـكَ شـارِباً كَلاّ وَحِياضُـكَ مُتْرَعَـةٌ في ضَنْـكِ الْمَحُـولِ، وَبابُـكَ مَفْتُوحٌ لِلطَّلَـبِ وَالْوُغُـولِ، وَأنْـتَ غايَةُ الْمَسْـؤولِ (السُـؤْلِ) وَنِهايَةُ الْمَأمُولِ، الـهي هذِهِ أزِمَّـةُ نَفْسـي عَقَلْتُها بِعِقالِ مَشِـيَّتِكَ وَهـذِهِ أعْبـاءُ ذُنُوبـي دَرَأتُها بِعَفْوِكَ وَرَحْمَتِـكَ وَهـذِهِ أهْوائِي الْمُضِلَّـةُ وَكَلْتُها إلى جَنابِ لُطْفِـكَ وَرَأفَتِكَ، فَاجْعَلِ اللّـهُمَّ صَباحـي هذا نازِلاً عَلَـي بِضِياءِ الْهُدى وَبِالسَّـلامَةِ في الدّيـنِ وَالدُّنْيا، وَمَسـائي جُنَّةً مِـنْ كَيْدِ الْعِدى وَوِقايَـةً مِنْ مُرْدِياتِ الْهَوى أنَـكَ قادِرٌ عَلى ما تَشـاءُ تُؤتِـي الْمُلْكَ مَنْ تَشـاءُ وَتَنْـزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشـاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشـاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشـاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إنَّـكَ عَلى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ، تُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهـارَ في اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشـاءُ بِغَيْرِ حِساب، لا إلَـهَ إلاّ أنْتَ سُبْحانَكَ اللّـهُمَّ وَبِحَمْدِكَ مَنْ ذا يَعْرِفُ قَدْرَكَ فَلا يَخافُكَ، وَمَن ذا يَعْلَمُ ما أنْتَ فَلا يَهابُكَ، ألَّفْتَ بِقُدْرَتِكَ الْفِرَقَ، وَفَلَقْتَ بِلُطْفِكَ الْفَلَـقَ، وَأنَـرْتَ بِكَرَمِكَ دَياجِي الْغَسَـقِ، وَأنْهَرْتَ الْمِياهَ مِـنَ الصُّمِّ الصَّياخِيدِ عَذْبـاً وَأُجاجـاً، وَأنْزَلْـتَ مِـنَ الْمُعْصِراتِ مـاءً ثَجّاجـاً، وَجَعَلْتَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ لِلْبَرِيَّـةِ سِـراجاً وَهّاجـاً مِـنْ غَيْرِ أنْ تُمـارِسَ فيما ابْتَـدَأتَ بِهِ لُغُوبـاً وَلا عِلاجاً، فَيـا مَنْ تَوَحَّدَ بِالْعِزِّ وَالْبَقاءِ، وَقَهَرَ عِبـادَهُ بِالْمَوْتِ وَالْفَناءِ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِهِ الأتْقِيـاءِ، وَاسْمَعْ نِدائي وَاسْـتَجِبْ دُعائي وَحَقِّقْ بِفَضْلِـكَ أمَلي وَرَجائي، يا خَيْرَ مَنْ دُعِـيَ لِكَشْـفِ الضُّرِّ وَالْمَأمُولِ لِكُـلِّ عُسْـرٍ وَيُسْـرٍ، بِكَ أنْزَلْتُ حاجَتي فَلا تَرُدَّنـي مِنْ سَـنَّي مَواهِبِكَ خائِباً، يا كَـريمُ يا كَـريمُ يا كَـريمُ بِرَحْمَتِكَ يـا أرْحَمَ الرّاحِمينَ وَصَلَّـى اللّهُ عَلى خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّـد وَآلِهِ أجْمَعينَ»

«الـهي كَيْـفَ تَطْـرُدُ[1] مِسْـكيناً[2] الْتَجَـأَ إِلَيْـكَ مِـنَ الذُّنُوبِ هارِبـاً، أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ[3] مُسْتَرْشِـداً قَصَدَ إِلى جَنابِكَ[4] سـاعِياً، أَمْ كَيْفَ تَرُدُّ ظَمْآناً وَرَدَ إِلى حِياضِكَ شـارِباً».

يبتـدأ الدعـاء في هـذا النـص بكلمـة (إلهـي) أيضـا التـي ملؤهـا الانكسـار والخضـوع وهـي كلمـة محببـة إلى النفـوس المنكسرة التي لا تجد ما يجبر كسرها إلا هـذا النـداء الـذي يفتـح أمـام الداعـي النافـذة التي يطـل منهـا عـلى رضـوان الله وعفـوه ومغفرتـه، إذ إنّ الإمـام (عليـه السـلام) يرشـد الداعـي إلى أنـه قـد وصـل إلى حالـة مـن الانكسـار والمسـكنة، وهـو يستشـعر تقصـيره بـين يـدي الله تعـالى، وقـد وقـف متذلـلا في حـضرة القـدس الإلهيـة ملتمسـا رحمتـه تعـالى وعطفـه، وهـو يصـور حالـه وقـد وقـف بـباب رحمـة الله يقـرع ذلـك البـاب بيـد ملؤهـا الرجـاء فقـد جـاءه هاربـا مـن ذنوبـه التـي اقترفهـا بسـبب كثـرة إتباعـه الهـوى، ولكنـه يعلـم أنّ هنالـك حبـلا للنجـاة إذا مـا تمسـك بـه سـينجو مـن مسـتنقع الأهـواء والذنـوب، وهـذا الحبـل المتـين هـو كتـاب الله والعـترة الطاهـرة.

(١) تطرد: الطرد هو الدفع والإبعاد. ينظر: لسان العرب: ٣/ ٢٦٧، مادة (طرد).

(٢) مسكينا: المسكين مأخوذ من دائم السكون ومن المسكنة وهي الذلة والافتقار، ويقصد به الافتقار إلى رحمة الله والتذلل إليه بمسكنة وانكسار. ينظر: المصدر نفسه: ١٣/ ٢١٧، مادة (سكن).

(٣) تخيب: يقال خاب الرجل إذا لم ينل ما طلب والخيبة من الحرمان والمحرومية. ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٣٦٨، مادة (خوب).

(٤) والجناب هو الفِناء والناحية والمراد به القرب من الله سبحانه. ينظر: مجمع البحرين: ٢/ ٢١٣، مادة (جنب).

وفي هذه الفقرة نجد أنّ الإمام (عليه السلام) يرشد الداعي إلى أن يعود للسؤال بصيغة الاستفهام الذي خرج إلى التعجب (الهي كيف تطرد مسكينا التجأ إليك من الذّنوب هاربا) هذه الفقرة تصور حالة إنسان ظن أو توهم أنّ سيده سيرده ويطرده بعيدا عن رحمته، ولن يفتح له بابه الذي وقف عنده يطرقه طويلا، ندما على ما بدر منه من ذنوب.

(أم كيف تخيّب مسترشدا قصد إلى جنابك ساعيا) فكيف يخيب الله من ضل عن الطريق المستقيم لجهله. فقصد ربه ليرشده إلى الطريق الواضح ويهديه إلى الصراط المستقيم؟! لذا فقد قصده ليروي ظمأه من صافي علمه وحكمته. فيرد تلك الحياض القدسية التي تفيض من أنوار العلم والمعرفة. وهل يليق بمن يملك مثل هذه الحياض أن يمنع من قصده ليروي ظمأه؟!

(أم كيف تردّ ظمئان ورد إلى حياضك شاربا).

إذا تأملنا قليلا في هذه الفقرة نجد أنّ الإمام (عليه السلام) قد اختار ألفاظه بعناية فائقة، فجاءت متلائمة مع ما يجاورها، موافقة للمعنى الذي توخاه منها، فقد استعمل لفظة (تطرد) مع لفظة (مسكينا) ولم يستعمل مكانها لفظة تمنع أو تردّ؛ لما في لفظة (تطرد) من معنى يتناسب والمقام. فإن الطرد هو ردّ مع إذلال ومهانة. واستعمل لفظة (تخيّب) مع لفظة (مسترشدا) ولم يقل: ترد أو تمنع أو تطرد؛ لأنّ لفظة (تخيب) فيها معنى الرد وزيادة وهو الرجوع من دون الحاجة التي قصدها. وفي التعبير بلفظة تخيّب وقع في نفس الداعي قد لا يحصل لو عبر عنه بلفظ آخر، فاللفظة تعطي معنى الحرمان من فيض الله وكرمه، واستعمل لفظة (ترد) مع لفظة (ظمآن) لمناسبتها للمقام.

إن هذا الاستعمال المتقن في اختيار الألفاظ وطريقة رصفها كان له أثره في تشكيل المعنى ووضوحه لدى السامع، فقد رسم لنا الإمام (عليه السلام) لوحة فنية رائعة، من خلال الصورة المجازية الجميلة التي وظفها هنا،فإنه شبّه الداعي الذي يقف بحضرة ربه قاصدا وجهه وطالبا قضاء حوائجه بالمسكين الذي يقف بباب الغني طالبا حاجته، وبالضال الذي يطلب إرشاده إلى الطريق الصحيح، وبالعطشان الذي يطلب الماء.

إنّ من يقرأ هذه الفقرة تقفز إلى ذهنه صورة ذلك المسكين الذي أحوجه العوز إلى أن يقف بباب من يعلم أنّ عنده ما يطلبه ويبتغيه، فراح يطرق ذلك الباب بيد ملؤها الرجاء في أن لا يرجع إلا بحاجته. كما تنطبع في الذهن صورة إنسان ضل عن الطريق، ورام أن يهتدي إليه، فقصد من عُرف عند الناس بعلمه وحكمته ليسأله. و كذلك صورة إنسان أضر به العطش حتى كاد يلفظ أنفاسه، فراح يحث الخطى طالبا الماء عند من كانت حياضه مترعة بالماء الصافي الذي يروي الأكباد الحرّى.

«كَلاَّ وَحِياضُكَ مُتْرَعَةٌ في ضَنْكِ المَحُولِ[1]، وَبابُكَ مَفْتُوحٌ لِلطَّلَبِ وَالْوُغُولِ[2]، وَأَنْتَ غايَةُ الْمَسْؤولِ (السُؤْلِ) وَنِهايَةُ الْمَأْمُولِ»[3].

(١) المَحْل: الشدة و الجدب و انقطاع المطر و يبس الأرض من الكلأ. مجمع البحرين:٥/ ٣٠٠، مادة (محل).

(٢) أوغل في الأرض: إذا سار فيها فأبعد ووغل الرجل: دخل في الشجر و توارى فيه. المصدر نفسه: ٥/ ٤٩٣.

(٣) الوُغول: هو الدُّخول في الشيء وإن لم يُبعَد فيه.ينظر: لسان العرب: ١١/ ٧٣٣، مادة (وغل).

في هذه الفقرة ينكر الداعي على من يتوهم أو يظن أنّ الله تعالى قد يطرد مسكينا التجأ إلى سيده تائبا أو يخيب مسترشدا قصد إلى ساحته يطلب إرشاده إلى الطريق الصحيح، أو يرد عطشانا يطلب الماء ؛ لأنّه يعلم أنّ من وقف ببابه هو الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، فهو كريم لا يرد طالبا، ورحيم لا يمنعه عصيان من عصاه واجترأ عليه.

ولفظة (كلّا) حرف جواب يستعمل للردع والنفي للكلام السابق. فيكون المعنى: لا يا الهي فإنك لا تطرد مسكينا قصد بابك ولا تخيب مسترشدا قصد إلى جنابك ولا ترد ظمآن ورد إلى حياضك، وحاشاك ربي أن توصف بهذه الأوصاف. ولم يكتفِ الداعي بهذه الكلمة فراح يصحح ما ذكره سابقا بذكر ما يخالفه.

(وحياضك مترعة في ضنك المحول) إنّ حياضك مملوءة بالعفو والرحمة والمغفرة في الوقت الذي يجابه الإنسان بالجدب والجفاف من كل مكان فتسد الأبواب في وجهه.

(وبابك مفتوح للطّلب و الوغول) إنّ بابك مفتوح لكل أحد وفي كل وقت لمن يريد ولوجها طالبا حاجته، ومن دون فرق بين البشر بكافة أصنافهم ولا يحتاج أحد منهم أن يستأذن للدخول إلى ساحة قدسك، فلا حاجب ولا بواب يمنع من دخول أحد، وهو تعالى لا يحتاج إلى شفيع في استجابة دعوة من دعاه.

(وأنت غاية المسؤول و نهاية المأمول) فأنت يا إلهي غايتي في سؤالي وليس يوجد غيرك من أتوجه إليه واسأله في أموري. وجاء في بعض النسخ تبديل كلمة (المسؤول) بكلمة (السؤل) وهو ما يسأله الداعي والمعنى أنك أنت يا إلهي غاية من يسأله الإنسان ويطرق بابه[1] وإليك تنتهي آمال العباد في القربى منك والزلفى لديك.

«الهي هذِهِ أزِمَّةُ نَفسي عَقَلْتُها[2] بِعِقالِ مَشِيَّتِكَ» .

يصور لنا الدعاء حالة الداعي وهو يضع لكل رغبة من رغباته النفسية زماما يناسبها، فكما أنّ الناقة الجموح تحتاج إلى زمام يكبح جماحها لتسهل قيادتها فكذلك النفس الأمّارة فإنها تحتاج إلى ما يكبح جماح رغباتها وشهواتها، ولأنّ شهواتها كثيرة ومتعددة فهي تحتاج إلى أكثر من زمام لكي يسيطر عليها، فإن شهوة الجنس تحتاج إلى زمام، وشهوة المال تحتاج إلى زمام، وشهوة السلطة تحتاج إلى زمام، وشهوة الجاه تحتاج إلى زمام، وهكذا في بقية الشهوات. ولذلك عبّر الإمام بقوله (أزمّة نفسي) بصيغة الجمع ولم يعبر بصيغة المفرد.

ثم إنه (عليه السلام) لمعرفته الدقيقة بأنّ الإنسان مهما أجهد نفسه في ساحة الجهاد الأكبر ضد النفس فإنه يبقى ضعيفا، وبالتالي فإن هذه الأزمّة التي وضعها لكبح رغبات نفسه وشهواتها لن تصمد كثيرا أمام شهوات

(١) ينظر: أضواء على دعاء الصباح: ٢٥٦-٢٥٨.

(٢) العَقْلُ: الحِجْر و النُّهى ضِدُّ الحُمْق. مأخوذ من عَقَلْتُ البَعيرَ إذا جَمَعْتَ قوائمه، و قيل: العاقِلُ الذي يَحْبِس نفسه و يَرُدُّها عن هَواها، وسُمِّي العَقْلُ عَقْلًا لأَنه يَعْقِل صاحبَه عن التَّوَرُّط في المَهالِك. المصدر نفسه: ١١/ ٤٩٥، مادة (عقل).

النفس المتكررة إذا لم يعقلها ويثبتها ليمنعها عن الحركة. ولابد أن يكون عقالها قويا حتى لا تفلت منه. ولم يجد عقالا أقوى من عقال مشيئة الله لتنقاد بأمره وتنتهي بنهيه. وبذلك يكون الداعي قد فوض أمره إلى الله عز وجل في كل صغيرة وكبيرة وتوكل عليه في كل ذلك .

«وهذِهِ أعْباءُ[1] ذُنُوبي دَرَأْتُها بِعَفْوِكَ وَرَحْمَتِكَ» .

وبعد أن أرشد الإمام (عليه السلام) الإنسان إلى أن يعلن توكله على الله سبحانه، وتسليمه قياد نفسه لمشيئته سبحانه، لتكون نفسه سائرة على وفق الإرادة الإلهية، يعلن في هذه العبارة انه يضع بين يدي رحمة ربه ما اقترفته يداه من الذنوب والمعاصي التي أثقلت ظهره ليغفرها له بتفضله وعفوه.

«وَهذِهِ أهْوائِي الْمُضِلَّةُ وَكَلْتُها[2] إلى جَنابِ[3] لُطْفِكَ وَرَأفَتِكَ» .

الأهواء هي الوساوس النفسية التي تدفع الإنسان باتجاه الشهوة والتي تقف في طريق الإنسان فتصرفه عن مسيرته الخيرة، وتحرفه عن الطريق المستقيم؛ ولذلك ترى الدعاء يوجه الداعي بأن يلتمس من ربه أن يقبل منه بأن يوكل أمر هذه الوساوس إلى لطفه ورأفته ليعينه على صرفها عنه.

---

(١) العِبْءُ، بالكسر: الحِمْل والثِّقيلُ من أَي شيءٍ كان، والجمع الأَعْباء، وهي الأَحْمال والأَثْقالُ. لسان العرب: ١/ ١١٧، مادة (عبء).

(٢) وَكَلْت أَمري إِلى فلان أَي أَلجَأْتُه إِليه و اعتمدت فيه عليه، و وَكَّل فلانٌ فلاناً إِذا استَكْفاه أَمرَه ثِقةً بكِفايتِه أَو عَجْزاً عن القِيام بأَمر نفسه. لسان العرب: ١١/ ٧٣٥، مادة (وكل).

(٣) الجنب: الناحية، وكذا الجانب وهو أحد نواحي الشيء، والجناب بالفتح: الفناء وما قرب من محله القوم، والجمع أجنبة. مجمع البحرين: ٢/ ٢٧، مادة (جنب).

«فَاجْعَلِ اللّـهُمَّ صَباحي هذا نازِلاً عَلَي بِضِياءِ الْهُدى[1]، وَبِالسَّلامَةِ فِي الدّينِ وَالدُّنْيا» .

هنا يستثمر الإمام الصورة الحسية لخروج الصباح من بين ظلمات الليل فينير الموجودات ويكشف للمخلوقات طريقها ويعلن لها بدء الحركة والنشاط بعد ظلمة الليل وسكونه وركوده، حيث دلع الله لسان الصباح، فكان آية ناطقة بعظيم قدرته سبحانه وجميل صنعه.

يستثمر الإمام هذا المشهد لكي يرشد الداعي أن يطلب من ربه أن ينزل عليه نور المعرفة والحكمة، ليهتدي به ويشق طريقه وسط بحر الدنيا المليء بالفتن والأهواء، كالنور الذي يهتدي به السائرون في الليالي الظلماء.

وقد اختار الإمام (عليه السلام) لفظة (ضياء) ولم يستعمل لفظة (نور) لكي يشير إلى أن العلم والمعرفة هو مصدر الهداية، وهذا المعنى لا يحصل لو استعمل لفظة (نور) وقد ذكرنا فيما مضى من هذه الدراسة الفرق المعنوي بين اللفظتين .

ومع أنّ الهدى أمر معنوي إلا أنّ الدعاء أضفى عليه صفة المحسوسات عندما شبه الهدى بالشمس التي هي مصدر الضوء واستعار كلمة (ضياء) ليسندها إلى (الهدى) وبهذا الاستعمال اكتسب الأمر المعنوي صفة المحسوسات وهو أسلوب التجسيم المعروف في البلاغة. وفي العبارة استعمال مجازي آخر

(١) الهدى: هو الرشاد والبيان والدلالة، وهو هداية الإنسان لما فيه خيره وصلاحه على الصعيدين الدنيوي والأخروي. مجمع البحرين: ١/ ٤٧٣.

وهو جعل الصباح نازلا بضياء الهدى. والصباح لا ينزل بالضياء وإنما ينزل فيه الضياء.

(و بالسّلامة في الدّين و الدّنيا) والملاحظ أنّ الإمام لم يقتصر على طلب السلامة في الدين أو السلامة في الدنيا بل طلب السلامة في الدين والدنيا. فأكّد على السلامة فيما يعود إلى الدين والسلامة فيما يعود إلى الدنيا، إذ إنّ الاقتصار على الدين فقط يقود إلى الرهبنة التي لا يرتضيها الإسلام للمجتمع ككل؛ لأنّ معنى ذلك إيقاف عجلة الحياة وتعطيل النظام الاجتماعي وترك مصادر العيش، وهكذا فيما تعلق بالاقتصار على أمور الدنيا فإنه يقود إلى إيجاد مجتمع منسلخ عن القيم الأخلاقية ولا يتحلى بالصفات الخيرة، ولا يتخلق بالمثل العليا التي تريدها السماء لأبناء الأرض، وإنّ مجتمعا همه الدنيا لا يتعدى أن يكون أفراده كالبهائم همهم ما يملأ بطونهم ويشبع رغباتهم التي يأنسون بها من متع ولذات مؤقتة ونزوات عابرة[1].

«وَمَسائي جُنَّةً[2] مِنْ كَيْدِ[3] الْعِدى وَوِقايَةً مِنْ مُرْدِياتِ[4] الْهَوى» .

(١) ينظر: أضواء على دعاء الصباح: ٢٦٦.

(٢) الجنة بالضم والتشديد: الستر، وما تسترت به من سلاح ونحوه. وفي الحديث الصوم جنة من النار أي يتستر به من دخول النار و المعاصي، لأنّه يكسر الشهوة و يضعف القوة. و في حديث الحق تعالى يا موسى اتخذني جنة للشدائد. مجمع البحرين: ٦/ ٢٣٠، مادة (جنن).

(٣) الكيد هو الخديعة والاحتيال، والمراد هنا ما يشتمل على الشر. ينظر: لسان العرب: ٣/ ٣٨٣، مادة (كيد).

(٤) المرديات: جمع مردية وهي الأمر المهلك، والمراد بها هنا الأمور التي توقع في المهالك التي تنشأ من أهواء النفس الأمارة بالسوء. ينظر: المصدر نفسه: ١٤/ ٣١٦، مادة (ردي).

إنّ طبيعة الليل التي تنطوي على الظلمة والسكون مهيأة لتصبح ساحة للوساوس النفسية والشيطانية التي تجر الإنسان إلى السقوط في المهلكات. ويمكن أن نطلق على تلك الوساوس اسم العدو الخفي. وكذلك فإن الليل يشكل ساحة مناسبة لعدو آخر ينسل في وسط الظلمة ليفتك ويقتل ويسرق ويهلك الحرث والنسل، ويمكن أن نطلق عليه العدو الظاهر؛ ولذلك تجد الدعاء يؤكد على أن يستمد الإنسان العون من ربه ليقيه من شرور هذين العدوين، فيطلب منه أن يجعل مساءه ترسا منيعا ضد العدو الخارجي ووقاية من الأهواء والوساوس النفسية المهلكة. ومن لطيف البيان تلك الدقة في اختيار الألفاظ، إذ نجد الإمام (عليه السلام) يختار لفظة (جُنة) التي تعبر عن أمر مادي محسوس لتكون علاجا للعدو الظاهري المحسوس (العدى) واختار لفظة (وقاية) التي تعبر عن أمر معنوي هنا لتكون علاجا للعدو الخفي (مرديات الهوى) وهذا الأمر لا يتيسر لأي أحد إلا من أصبحت اللغة بين يديه كالعجينة يشكلها كيف يشاء . كما لا يخفى ما في العبارة من جمال في استعمال المجاز، فقد جعل المساء جنة من كيد العدى،ووقاية من مرديات الهوى. والحال إنّ المساء لا يكون جُنة وإنما يستجن ويتوقى فيه من العدى ومرديات الهوى أي يكون محلا لهما.

«إنَكَ قادِرٌ عَلى ما تَشاءُ» .

قدرة الله مطلقة لا تحدها حدود؛وإنّ كلّ شيء خاضع لسلطانه تعالى ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. والملاحظ أنّ الإمام (عليه السلام) استعمل

صيغة الصفة المشبهة التي على وزن (فاعل) في تعبيره عن قدرة الله (قادر) ولم يستعمل صيغة الفعل المضارع. إذ إن في الفعل المضارع دلالة على تجدد القدرة وحدوثها وهذا الأمر قد يعني أنها لم تكن موجودة فحدثت ولهذا جاء بالكلمة على صيغة الصفة المشبهة التي تدل على الدوام والثبوت والاستمرار للإشارة إلى دوام قدرته سبحانه وثبوتها واستمرارها .

«تُؤتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِع الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ» .

ان مسألة إعطاء الملك إلى من يشاء ونزعه الملك عمن يشاء ليست قضية اعتباطية وكيفية شهوانية كما هي عند البشر، بل هي مسألة تخضع للمصالح والمفاسد العامة التي ترجع إلى مصلحة المجتمع. وليس كل من يؤتيه الله الملك محبوبا إليه سبحانه وفي الوقت نفسه ليس كل من ينزع عنه الملك مبغوضا له سبحانه، بل بالإمكان تقسيم من يؤتى الملك على قسمين:

١. من يؤتيه الله الملك استدراجا له بأن يمنحه العطيّات والنعم الدنيوية ليزداد في غيه وطغيانه وإثمه. فواضح أن هذا الصنف مبغوض له سبحانه. وفي هذا المعنى ما ذكرته السيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب عندما كانت بحضرة الطاغية يزيد بن معاوية. فقالت فيما خاطبته: (أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا على الله هوانا وبك عليه كرامة، و إن ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسرورا حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، و الأمور متسقة، و حين صفا لك ملكنا و سلطاننا، مهلا مهلا،

أنسيت قول الله: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران/ ١٧٨])[١].

٢. من يؤتيه الملك ويسلطه على الناس فيمكنه في الأرض ليحقق الإرادة الإلهية في خلقه سبحانه، فيكون مصداقا لقوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلله عاقِبَةُ الأمور﴾ [الحج/ ٤١].

فالملك بإطلاقه شامل لكل ملك حقا أو باطلا عدلا أو جورا فإن الملك كما في نفسه موهبة من مواهب الله و نعمة يصلح لأنّ يترتب عليه آثار حسنة في المجتمع الإنساني و قد جبل الله النفوس على حبه و الرغبة فيه، ويكون الملك بالنسبة إلى من هو أهله نعمة من الله سبحانه إليه، و بالنسبة إلى غير أهله نقمة و هو على كل حال منسوب إلى الله سبحانه و فتنة يمتحن بها عباده[٢].

وأما نزع الملك فالظاهر انه مختص بمن هو مبغوض له سبحانه وذلك لأنّ النزع في اللغة هو العزل والقلع ففي كلمة النزع صرامة وجذب وشدة وهذا لا يناسب مع من يحبه الله ويكرمه أن يعبر عنه بنزع الملك عنه .

إنّ نزع الملك يتلاءم مع من كانوا مبغوضين له سبحانه، هؤلاء الذين يأخذهم الغرور فينسون أنفسهم حينما يمكنهم الله في الأرض ويتصورون أنّ لهم الحول والقوة فيعيثون في الأرض فسادا يهلكون الحرث والنسل

(١) اللهوف: علي بن طاووس: ١٨١ .
(٢) الميزان في تفسير القران: الطباطبائي:٣/ ١٣١.

ويتصرفون تصرف الطائش النزق بعدما أنعم الله عليهم وجعلهم في رفاهية من العيش.

«وَتُعِزُّ[1] مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ» .

العز كون الشيء بحيث يصعب مناله، و لذا يقال للشيء النادر الوجود إنه عزيز الوجود أي صعب المنال. ويقال عزيز القوم لمن يصعب قهره و الغلبة عليه من بينهم فهو صعب المنال بالقهر والغلبة. ويقابله الذل و هو سهولة المنال بقهر محقق أو مفروض قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة/ ٦١].

و العزة من لوازم الملك على الإطلاق و كل من سواه إذا تملك شيئا فهو تعالى خوله ذلك و ملكه، و إن ملك على قوم فهو تعالى آتاه ذلك فكانت العزة له تعالى محضا و ما عند غيره منها فإنما هو بإيتائه و إفضاله، قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فإن الْعِزَّةَ لله جَمِيعاً﴾ [النساء/ ١٣٩]، و هذه هي العزة الحقيقية و أما غيرها فإنما هي ذل في صورة عز[2]. ويمكن أن تحصل العزة بالموقع الاجتماعي، أو السياسي، ويمكن أن تحصل العزة بكثرة الأموال، ويمكن أن تكون العزة، بسبب الانتساب إلى نسب شريف، كالانتساب لرسول الله صلى الله عليه وآله.

---

(١) العِزُّ في الأَصل: القوة والشدة والغلبة. والعِزُّ والعِزَّة: الرفعة والامتناع، والعِزَّة لله، وعَزَّ يَعِزّ، بالكسر، عِزًّا وعِزَّةً وعَزازَة، ورجل عَزيزٌ من قوم أَعِزَّة وأَعِزَّاء وعِزازٍ. وأَعَزّ الرجلَ: جعله عَزِيزاً. لسان العرب: ٥/ ٣٧٤، مادة (عزز).

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٣/ ١٣٢.

«بِيَدِكَ الْخَيْرُ اِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ» .

الخير هو المطلوب لنفسه يسمى خيرا لكونه هو المطلوب إذا قيس إلى غيره، وهو المنتخب من بين الأشياء إذا أردنا واحدا منها و ترددنا في اختياره من بينها . وهو صيغة التفضيل و أصله أخير، قوله: (إنك على كل شيء قدير) في مقام التعليل لكون الخير بيده تعالى، فإنّ القدرة المطلقة على كل شيء توجب أن لا يقدر أحد على شيء إلا بإقداره تعالى إياه على ذلك، ولو قدر أحد على شيء من غير أن تستند قدرته إلى إقداره تعالى كان مقدوره من هذه الجهة خارجا عن سعة قدرته تعالى فلم يكن قديرا على كل شيء. وإذا كانت لقدرته هذه السعة كان كل خير مفروض مقدورا عليه له تعالى. وكان أيضا كل خير إفاضة غيره منسوبا إليه مفاضا عن يديه فهو له أيضا. وهذا هو الحصر الذي يدل عليه قوله تعالى: بيدك الخير .

«تُولِجُ[1] اللَيْلَ في النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ» .

الظاهر أن المراد من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل ما هو المشاهد من اختلاف الليل والنهار في عرض السنة بحسب اختلاف عروض البقاع والأمكنة على بسيط الأرض[2]، إذ إنّ الأرض لما كانت كروية الشكل فإن نصفها المعرض للشمس يستضيء بالنور فيكون نهارا في حين إنّ النصف المقابل يكون مظلما فيكون ليلا، وهكذا يتعاقب الليل والنهار في كل بقعة

(١) الوُلُوجُ الدخولُ. وَلَجَ البيتَ وُلُوجا. لسان العرب: ٢/ ٣٩٩، مادة (ولج).
(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٣/ ١٣٥.

من بقاع الأرض من الشرق إلى الغرب فبينما تخرج بقعة من الظلام وتتعرض أمام الشمس فيكون فيها الصباح تدخل بقعة أخرى في الظلام فيكون فيها الليل.

«وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَي» .

عندما نرجع إلى القرآن الكريم ونتأمل تفسير هذه الآية نجد أنّ المفسرين قد اختلفوا في تفسيرها فبعض يذهب إلى أن المقصود بالموت والحياة هما الموت والحياة المعنويين، وذهب بعضهم الآخر إلى أنّ المقصود هو الموت والحياة الماديين. أما الموت والحياة المعنويان فيمثل له بخروج العالم من الجاهل والمؤمن من الكافر، وأما إذا انعكس الأمر حيث خروج الميت من الحي فهو كما لو خرج الجاهل من العالم والكافر من المؤمن .

وأما الموت والحياة الحسيان فيمثلون له بالنطفة وهي ماء الرجل فإنها مصداق للآية الكريمة بشقيها، فإنّ هذه النطفة الميتة في مبدأها عندما تستقر في رحم المرأة وتتحد مع البيضة الأنثوية تنمو فتكوّن الإنسان،فيصدق قوله تعالى (يخرج الحي من الميت) ومن أنها تخرج من إنسان حي وهي ميتة لا حياة فيها فيصدق قوله تعالى ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الروم / ١٩][1].

«وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِساب» .

توصيف الرزق بكونه بغير حساب إنما هو لكون الرزق منه تعالى بالنظر إلى حال المرزوقين بلا عوض و لا استحقاقٍ لكون ما عندهم من استدعاء

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٣ / ١٤٤، ومجمع البيان: للطبرسي: ٤/ ٥٢٤.

أو طلب أو غير ذلك مملوكا له تعالى محضا فلا يقابل عطيته منهم شيء. فلا حساب لرزقه تعالى .و أما كون نفي الحساب راجعا إلى التقدير بمعنى كونه غير محدود و لا مقدر فيدفعه آيات القدر كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر/ ٤٩]، و قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق/ ٢- ٣]، فالرزق منه تعالى عطية بلا عوض لكنه مقدر على ما يريده تعالى. و قد تحصل من الآيتين أولا: أن الملك بضم الميم كله لله كما أن الملك بكسر الميم كله لله. وثانيا: أن الخير كله بيده و منه تعالى. وثالثا: أن الرزق عطية منه تعالى بلا عوض و استحقاق[1].

«لا اِلـهَ إلاّ اَنْتَ سُبْحانَكَ اللّـهُمَّ وَبِحَمْدِكَ» .

بعدما ذكر الدعاء ما يتفرد به الله سبحانه ويتفضل به على خلقه من أنّه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وان بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، ومن قدرته أن يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ويرزق من يشاء بغير حساب، بعدما يذكر هذه الأوصاف يصل إلى نتيجة مفادها: أنّ مَنْ هذه صفاته هو وحده الإله الذي يستحق أن يعبد دون سواه وقد أظهر توحيده تعالى ونفى الشريك عنه بهذا النحو من الحصر عن طريق النفي والاستثناء (لا اله إلا أنت) ومن ثم شرع بتنزيه الله سبحانه

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣/ ١٤١.

وإبعاده عما لا يليق بحضرته من صفات المخلوقين فقال (سبحانك اللهم) وتعني تنزيه الله عن كل ما لا يليق بذاته المقدسة، (وبحمدك) قيل في هذه الواو أنها حالية ليكون تقدير الجملة: أسبحك يا الله حال كوني أحمدك وقيل في هذه الواو أنها عاطفة أي أنها تعطف الجملة الاسمية أو الجملة الفعلية المقدرة على الفعل المضمر في سبحانك فيكون التقدير: أنزهك وأحمدك[1].

«**مَنْ ذا يَعْرِفُ قَدْرَكَ فَلا يَخافُكَ**[2]، **وَمَن ذا يَعْلَمُ ما اَنْتَ فَلا يَهابُكَ**[3]».

يبدأ الداعي هذه الفقرة باستفهام إنكاري ينطوي على تعجب صريح ممن يعرف قدرة الله ولا يخافه ولا يخشى سطوته ويفزع من غضبه. وقد فاضت آيات القرآن الكريم بالمعاني التي تحكي قدرة الله وما فعله سبحانه بالطغاة الجبابرة الذين طغوا في البلاد فاكثروا فيها الفساد استخفافا بقدرة الله، فصب عليهم العذاب ودمرهم تدميرا، فأين عاد وثمود وأين أصحاب الفيل ومن كان على شاكلتهم وأين فرعون وهامان ونمرود.

ويحكي لنا القرآن أيضا قدرته تعالى في آيات أخرى تصف ما يحصل عندما تأتي الساعة يقول تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِين﴾ [الأنبياء/ ١٠٤]، ما أعظمها من قدرة! هذه السماوات وما فيها من كواكب ونجوم ومجرات

(١) ينظر: أضواء على دعاء الصباح: ٣٠٤.

(٢) الخَوْفُ: الفَزَعُ، خافَه يخافُه خَوْفاً و خِيفةً و مَخافةً. لسان العرب: ٩/ ٩٩، مادة (خوف).

(٣) الهَيْبةُ: المَهابةُ، وهي الإِجلالُ والمَخافة، يقال: هابَ الشيءَ يَهابُه إذا خافَه، و إذا وَقَّرَه، و إذا عظَّمَهُ. المصدر نفسه: ١/ ٧٨٩ مادة (هيب).

تطوى يوم القيامة بيد قدرته تعالى كما يطوي احدنا السجل بيده . ويتكرر هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر/ ٦٧].

وإذا كان الأمر كذلك فكيف لا يخاف من يعرف هذه القدرة؟! ثم من الذي يعلم ماهية الله سبحانه ويقف على حقيقته، ولو من بعض آثاره ولا يهابه ويحترمه ويعظّمه؟! والملاحظ أنّ الدعاء استعمل مع عرفان قدرته تعالى وصفته لفظة (يخافك) ومع عرفان ذاته تعالى وكنهه وحقيقته استعمل لفظة (يهابك) إذ إنّ معرفة قدرة الله تعالى وعظمته توجب في النفس فزعا وخوفا من سطوته وجبروته، وأمّا معرفة ذاته تعالى وحقيقته ولو من خلال آثاره فإنه يوجب حصول الهيبة في النفس والتعظيم والإجلال والاحترام له تعالى.

ثم يبدأ الدعاء بذكر بعض مظاهر قدرة الله تعالى في مخلوقاته لتكون دليلا على عظمة الصانع وحكمته، وأثرا بينا يقودنا إلى معرفته.

«اَلَّفْتَ[1] بِقُدْرَتِكَ الْفِرَقَ، وَفَلَقْتَ[2] بِلُطْفِكَ الْفَلَقَ، وَأَنَرْتَ بِكَرَمِكَ

(١) ألّف: جَمعَ، وأَلَّفْتُ بينهم تأْلِيفاً إذا جَمَعْتُ بينهم بعد تَفَرُّقٍ، و أَلَّفْتُ الشيء تأْلِيفاً إذا وصلْت بعضه ببعض، و منه تأْلِيفُ الكتب. لسان العرب: ٩/ ٩، مادة (ألف).

(٢) فَلَقَ الله الحَبَّ بالنبات: شقه. وقال بعضهم: وفالِق في معنى خالق، وكذلك فَلَقَ الأَرضَ بالنبات والسحاب بالمطر والفَلَق، بالتحريك: ما انفَلَقَ من عمود الصبح، وقيل: هو الصبح بعينه، وقيل: هو الفجر، وكلٌّ راجع إلى معنى الشق. المصدر نفسه: ١٠/ ٣١٠، مادة (فلق).

دَياجِـي[١] الْغَسَـقِ[٢]» .

مـن الآيـات الواضحـة عـلى عظيـم قـدرة الله أن ألّـف بـين القلـوب المتنافـرة بالتـوادد والتآلـف فجمـع بـين طوائـف النـاس ووحـد بينهـم ولـو خلـو وانفسـهم لـكان أمـر اجتماعهـم وتوحدهـم وتآلفهـم مستبعدا بـل مستحيلا، لاختلافهم فيما بينهـم في العقيـدة والمذهـب والديانـة والمعتقـد والأفـكار والثقافـات والانتـماءات والقوميـات وهكـذا. ولكـن الله تعـالى ألّـف بينهـم، يقـول تعـالى: ﴿وَاعْتَصِمُـوا بِحَبْـلِ الله جَمِيعـاً وَلا تَفَرَّقُـوا وَاذْكُـرُوا نِعْمَـتَ الله عَلَيْكُـمْ إذ كُنْتُـمْ أَعْـداءً فَأَلَّـفَ بَـيْنَ قُلُوبِكُـمْ فَأَصْبَحْتُـمْ بِنِعْمَتِـهِ إِخْوانـاً وَكُنْتُـمْ عَـلى شَـفا حُفْـرَةٍ مِـنَ النَّـارِ فَأَنْقَذَكُـمْ مِنْهـا كَذلِـكَ يُبَـيِّنُ اللهُ لَكُـمْ آياتِـهِ لَعَلَّكُـمْ تَهْتَـدُونَ﴾ [آل عمـران/ ١٠٣].

«وَفَلَقْتَ بِلُطْفِكَ الْفَلَقَ» .

والمراد بهـذه العبـارة انـه تعـالى أضـاء الكـون وأنـاره بضـوء الصبـاح وهـذا مـن لطـف الله تعـالى بخلقـه إذ لـو لا أخراجـه تعـالى للصبـح لبقيت المخلوقـات في ظلام دامـس، ولاختفـت الحيـاة مـن عـلى وجـه الأرض، فـكان طلـوع الصبـاح نعمـة أنعمهـا الله عـلى عبـاده، ليستعينوا بضوئـه عـلى أداء أمورهـم المعاشـية ونشـاطاتهم المختلفـة، بالعمـل والكسـب والجـد وبـذل الطاقـة نحـو تأمـين مـا تتطلبـه الحيـاة.

---

(١) الدُّجُـوُّ: الظلمـة، والدُّجى: سَـوادُ الليـلِ مَـعَ غَيْـمٍ، و أَنْ لا تـرى نَجْمًا و لا قمَـرا. دَياجي الليـل: حَنادِسُـه كأَنـه جمـع دَيْجـاةٍ. المصـدر نفسـه: ١٤/ ٢٥٠، مـادة (دجـا) .

(٢) غَسَـق الليـل يَغْسِـق غَسْـقاً وغَسَـقاناً وأَغْسَـقَ: أَظلـم. وغَسَـقُ الليـل: ظلمتـه، و قيـل أَول ظلمتـه. المصـدر نفسـه: ١٠/ ٢٨٩ مـادة (غسـق) .

«وَأَنَرْتَ بِكَرَمِكَ دَياجِي[1] الْغَسَقِ» .

والمقصود أنه تعالى أنار السماء بنور القمر لينير الجانب الظلم من الأرض وهو تفضلٌ وكرم منه سبحانه، إذ يأتي هذا النور فيضيء الليالي الحالكة ويمزق الظلام الذي يلقي بظلاله على النفوس ويحيطها بجو من الكآبة والانقباض، يأتي هذا النور ليزيل ذلك الجو الكئيب ويبعث النشوة والاطمئنان. يقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً﴾ [نوح/ ١٦]، يتبين من خلال الآية الكريمة أنّ الشمس هي مصدر الضوء، إذ عبر عنها بالسراج وأنّ النور المنبعث من القمر ما هو إلا انعكاس لأشعة الشمس التي تسقط على سطحه فترتد إلى الأرض فتحدث ذلك النور، وهذا ما قد بينته الاكتشافات العلمية قبل قرن من الزمن. والعجيب أنّ القرآن الكريم يذكر هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرنا فسبق بذلك الاكتشافات العلمية التي بينت تلك الحقيقة بقرون عديدة.

«وَانْهَرْتَ الْمِياهَ مِنَ الصُّمِّ[2] الصَّياخِيدِ[3] عَذْباً وَأَجاجاً[4]» .

(١) دجا: الدُّجى: سَوادُ الليلِ مَعَ غَيْم، و أَنْ لا ترى نَجْمًا و لا قمَراً، من دَجا الليلُ إذا تمَّتْ ظُلْمَته و أَلْبس كلَّ شيء و قد دَجا الليلُ يدْجُو دَجْواً و دُجُوّاً، فهو داجٍ و دَجِي. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٠، مادة (دجا).

(٢) الصم: الحجارة الشديدة وحَجرٌ أَصَمُّ: صُلْبٌ مُصْمَت والصَّمَمُ في الحَجَر: الشِّدَّة. لسان العرب: ١٢/ ٣٤٦، مادة (صمم).

(٣) الصياخيد جمع صَيْخود، وهي الصخرة الشديدة، صخرة صَيْخود وهي الصُّلبة التي يشتدّ حرّها إذا حميت عليها الشمس. المصدر نفسه: ٣/ ٢٤٥، مادة (صخد).

(٤) الأُجاج، بالضم: الماءُ الملح، الشديد الملوحة و ماءٌ أُجاجٌ أَي ملح؛ و قيل: مرٌّ؛ قال الله عز وجل: وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ؛ و هو الشديد الملوحة و المرارة، مثل ماء البحر. المصدر نفسه: ٢/ ٢٠٧ مادة (اجج) .

والمقصود بهذه العبارة بيان قدرة الله في إخراج المياه التي تحصل على وجه الأرض وهي عبارة عن فتحات في صخور القشرة الأرضية تتدفق منها المياه الباطنية إلى سطح الأرض بصورة مستمرة عادة [1].

«**وَأَنْزَلْتَ مِنَ الْمُعْصِراتِ[2] ماءً ثَجّاجاً[3]**».

في هذه الفقرة يبين الدعاء نعمة الله تعالى على خلقه التي بها قوام حياتهم وهي نعمة الماء هذه المادة الحياتية التي قال الله عنها: ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُون﴾ [الأنبياء/ ٣٠]، فهي آية من آيات قدرة الله وعظمته سبحانه.

ونلاحظ أنّ الدعاء استعمل كلمة (ثجّاجا) ليدل بها على سيلان الماء وانصبابه بشدة وغزارة ولم يستعمل بدلا منها (متساقطا أو سائلا أو غزيرا أو منصبا)؛ لأنّ هذه الألفاظ كلها لا تعبر عن المعنى الذي عبرت عنه لفظة (ثجاجا) إذ كان لوقع أصواتها أثرا في المعنى،لاسيما التكرار الذي يوحي بشدة المطر النازل وقوة سيلانه .

«**وَجَعَلْتَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِلْبَرِيَّةِ سِراجاً وَهّاجاً**» .

وقد خص الدعاء هاتين الآيتين بالذكر لما لهما من أهمية في حياة الإنسان على وجه هذه البسيطة فإن الشمس والقمر هما مصدر الضوء الذي لولاه

---

(١) أضواء على دعاء الصباح: ٢٢١ .

(٢) المُعْصِرِ: السحابة التي قد آن لها أَن تصُب وقيل: بل المُعْصِراتُ الغُيُومُ أَنفُسُها وقال أَبو إِسحق: المُعْصِرات السحائب لأَنها تُعْصِرُ الماء . لسان العرب: ٤/ ٥٧٧، مادة (عصر) .

(٣) الثَّجُّ: الصَّبُّ الكثيرُ، وخص بعضهم به صَبَّ الماء الكثير مَطَرٌ ثَجَّاجٌ: شديد الانصباب جدّا. أي هو سيلان المطر بانصباب واندفاع شديد. المصدر نفسه: ٢/ ٢٢١، مادة (ثجج).

لما استطاع الإنسان أن يعيش على الأرض، لأن الحياة ستكون مظلمة لا طعم لها، بل لولا الشمس لتجمدت الأرض ومن عليها، كما أن الشمس تمثل مصدر الضوء الذي يدخل في عملية التركيب الضوئي التي تحافظ على حياة النباتات على وجه الأرض وبالتالي يكون سببا في بقاء الحياة لبقية الكائنات.

«مِنْ غَيْرِ اَنْ تُمارِسَ فيما ابْتَدَأتَ بِهِ لُغُوباً وَلا عِلاجاً» .

جرت العادة أنّ الإنسان إذا أراد القيام بعمل كبير، فإنّ هذا العمل يتطلب جهدا كبيرا منه يبذله في سبيل إنجازه. ولما كانت العبارات السابقة من الدعاء بصدد الحديث عن مظاهر قدرة الله ونعمه التي منّ بها على البشرية كان لابد للإمام أن يبين أن الله عز وجل عندما أوجد هذه النعم لم تتطلب منه جهدا ولا مزاولة أي عمل، ولا تقديم أي مقدمات تستوجب العناء والمشقة؛لأنه جلت عظمته إذا أراد أمرًا إنما يقول له كن فيكون، يقول تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة/ ١١٧]، وفي آية أخرى يصرح القرآن الكريم بأنه تعالى لا يصيبه تعب ولا مشقة في ذلك إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق/ ٣٨].

«فَيا مَنْ تَوَحَّدَ[1] بِالْعِزِّ وَالْبَقاءِ» .

يمكن أن يوصف الإنسان بالقوة والشدة والغلبة ولكن هذه الأوصاف ليست ملازمة لذاته وإنما هي متغيرة بتغير الظروف والأحداث فهو عزيز في

(١) تَوَحَّدَ برأْيه: تفرّد به، وتوحد الله بالربوبية تفرد بها . لسان العرب: ٣/ ٤٤٩ مادة (وحد).

حال وزمان، وقد لا يكون كذلك في حال وزمان آخرين؛ لأنّ عزته مكتسبة من الله فهو مخلوق ممكن ضعيف محتاج في ذاته. وهذه الأوصاف إنما هي إفاضة عليه من الله العزيز القدير الذي عزته عين ذاته وليست شيئا خارجا عنها يقول تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون/ ٨].

يتصور بعض من غرته الدنيا أنه أصبح عزيزا بين الناس بماله أو جاهه أو منصبه فيحاول التعالي على الآخرين، وهذه الآية تبين لنا أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. ويتضح ذلك من خلال تقديم الخبر(لله) على المبتدأ (العزة) وهذا التقديم إنما كان للاختصاص والعناية بالخبر، وفي عطف قوله (لرسوله وللمؤمنين) على قوله (لله). وفي هذا العطف دلالة على أنّ عزة الرسول وعزة المؤمنين هي امتداد لعزة الله تعالى، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعا﴾ [فاطر/ ١٠]، إذ إن الله تعالى هو المتفرد بالعزة والمتفرد بالبقاء دون سواه.

«وَقَهَرَ[1] عِبادَهُ بِالْمَوْتِ وَالْفَناءِ» .

وهذه العبارة فيها تأكيد لما ذكر سابقا من تفرد الله تعالى بالبقاء إذ ان كل من في هذا الوجود هالك وصائر إلى زوال إلا وجهه تعالى، فإن الإنسان وكل كائن حي على وجه الأرض مهما طال عمره فإنه لابد أن يكون له حد محدود واجل ينتظره سيلاقيه في يوم ما. ولا حياة في هذه الدنيا إلا معها

(١) قهر: القَهْرُ: الغَلَبة و الأَخذ من فوق. لسان العرب: ٥/ ١٢٠، مادة (قهر).

موت وهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام/ ٦١].

«صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآلِهِ الأَتْقِياءِ، وَاسْمَعْ نِدائي وَاسْتَجِبْ دُعائي وَحَقِّقْ بِفَضْلِكَ أَمَلي وَرَجائي» .

يعود الدعاء في هذه الفقرة ليؤكد على قضية ذكرناها سابقا فيما يتعلق بالصلاة على النبي وآله، وهي أنّ الله تعالى كريم لا يناسب شأنه أن يستجيب بعض الدعاء وهو الصلاة على النبي وآله، ويرد بعضهم الآخر، وهو الطلب المشروع للداعي؛ لذا يشرع الإمام (عليه السلام) بطلباته فيقول (واسمع ندائي) بصيغة فعل الأمر ولكن الطلب حيث كان من الداني إلى العالي فهو السؤال وفيه نوع خضوع واستكانة، والمراد من هذا السؤال هو قبول نداء الداعي أو إجابة نداءه، وإلا فإن طلب السماع من الله لا معنى له وهو السميع البصير وهو يعلم السر وأخفى[1]. (واستجب دعائي) وسماع النداء مقدمة لاستجابة الدعاء فإذا قبل الله تعالى نداء هذا العبد المسكين فإن هذا يعني انه استجاب دعاءه .

«وَحَقِّقْ بِفَضْلِكَ أَمَلي وَرَجائي» .

يستثمر الداعي هذه اللحظات ليطلب من ربه في أن يحقق له كل ما يأمله وما يرجوه؛ لأنه يعلم أنّ عطاءه تعالى ليس باستحقاق هذا العبد الفقير،بل هو

(١) ينظر: أضواء على دعاء الصباح: ٣٥٠ .

بتفضل منه تعالى على عبيده؛ لأنه أهل الكرم والجود والتفضل والإحسان. لذا تجد الدعاء في هذه العبارة يؤكد هذه الحقيقة فيهيب بالداعي أن يسأل ربه ان يحقق له جميع مطالبه الدنيوية والأخروية ولم يكن سؤال الداعي ذلك كثيرا على الله تعالى؛ لأنه يعلم أنه لا يطلب بناء على استحقاق بل اعتمادا على كرمه سبحانه وتفضله.

«يا خَيْرَ مَنْ دُعِي لِكَشْفِ الضُّرِّ[١] وَالْمَأْمُولِ لِكُلِّ عُسْرٍ وَيُسْرٍ» .

قد يقصد الإنسان شخصا طلبا لحاجة يقضيها إليه فيدعوه لقضاء حاجته ويلتمس منه ذلك بارق الكلمات وألطفها ليتحنن عليه فيقضيها له، فإن لم يكن الشخص المقصود من أهل الخير والصلاح، فإنه يكتفي بالوعود الكاذبة ولا يحرك ساكنا، ولكن إن كان المقصود ممن عرف قيمة قضاء حوائج المؤمنين والمحتاجين، فإنه يهرع لقضائها إن تمكن من ذلك، وما ذلك إلا لصلاحه وكرم أخلاقه. وأما إذا كان المقصود هو أكرم الأكرمين والجواد المطلق الذي لا يرد سائله ولا يخيب آمله، فإنه خير من دعي وأفضل من أجاب. ولهذا يصفه الدعاء بـ(ياخير من دعي لكشف الضر والمأمول لكل عسر ويسر) ونلاحظ أنّ الدعاء قدم (كشف الضر) على (المأمول)؛ لأنّ دفع المضرة وكشفها أهم من جلب المنفعة هناك ملحوظة أخرى في هذه العبارة وهي أنّ الإمام (عليه السلام) قال: (يا خير من دعي لكشف الضر) ولم يقل (يا خير من كشف الضر) وبين القولين فرق كبير في المعنى، إذ إنه في عبارة

(١) الضر: بالضم، الضرر في النفس من مرض و هزال و سوء الحال، و بالفتح ضد النفع. لسان العرب: ٤/ ٤٨٢، مادة (ضرر).

الدعاء هناك إشارة إلى أنّ المدعوين ليسوا متساوين في إجابتهم دعوة الداعي، وهناك تفاضل بينهم، وأنه تعالى خيرهم و(خير) هي صيغة تفضيل. وأما لو قال: (يا خير من كشف الضر) لكان خطأ؛ لأنه لا يكشف الضر إلا الله، وأما غيره فهم أسباب لذلك. فيالها من دقة في اختيار الألفاظ !. وهناك ملحوظة ثالثة في هذه العبارة وهي وجود الحذف في قوله (والمأمول لكل عسر ويسر) والتقدير: (والمأمول لدفع وتفريج كل عسر وجلب كل يسر) والله اعلم.

«بِكَ أَنْزَلْتُ حاجَتي فَلا تَرُدَّني مِنْ سَنِيِّ[1] مَواهِبِكَ خائِباً يا كَريمُ يا كَريمُ يا كَريمُ بِرَحْمَتِكَ يا اَرْحَمَ الرّاحِمينَ» .

نلاحظ في هذه العبارة أنّ الداعي قدّم الجار والمجرور (بك) على متعلقه (أنزلت) لغرض العناية والاهتمام وبيان اختصاص المدعو بالدعاء، أي بك لا بغيرك بدلك أنزلت حاجتي فيكون من باب قصر القلب. فاني لا أطلب حاجتي من غيرك. وقد ورد في هذا المضمون دعاء عن الإمام السجاد (عليه السلام) يقول فيه: «فَمَنْ حَاوَلَ سَدَّ خَلَّتِهِ مِنْ عِنْدِكَ وَرَامَ صَرْفَ الْفَقْرِ عَنْ نَفْسِهِ بِكَ فَقَدْ طَلَبَ حَاجَتَهُ فِي مَظَانِّهَا وَأَتَى طَلِبَتَهُ مِنْ وَجْهِهَا وَمَنْ تَوَجَّهَ بِحَاجَتِهِ إِلى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ أو جَعَلَهُ سَبَبَ نُجْحِهَا دُونَكَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْحِرْمَانِ وَاسْتَحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَوْتَ الْإِحْسَانِ، اَللهُمَّ وَلِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ قَدْ قَصَّرَ عَنْهَا جُهْدِي وَتَقَطَّعَتْ دُونَهَا حِيَلِي وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي رَفْعَهَا إِلى مَنْ يَرْفَعُ

(١) سَنُوَفي حَسَبه سَناءً، فهو سَنِيٌّ: ارتفع. و يقال: إنّ فلاناً لسَنِيُّ الحَسَب و السَّنِيُّ: الرَّفيع. لسان العرب: ١٤/ ٤٠٣، مادة (سنو) .

حَوَائِجَهُ إِلَيْكَ وَلاَ يَسْتَغْنِي فِي طَلِبَاتِهِ عَنْكَ وَهِيَ زَلَّةٌ مِنْ زَلَلِ الْخَاطِئِينَ وَعَثْرَةٌ مِنْ عَثَرَاتِ الْمُذْنِبِينَ ثُمَّ انْتَبَهْتُ بِتَذْكِيرِكَ لِي مِنْ غَفْلَتِي وَنَهَضْتُ بِتَوْفِيقِكَ مِنْ زَلَّتِي وَرَجَعْتُ وَنَكَصْتُ بِتَسْدِيدِكَ عَنْ عَثْرَتِي وَقُلْتُ سُبْحَانَ رَبِّي كَيْفَ يَسْأَلُ مُحْتَاجٌ مُحْتَاجاً وَأَنَّى يَرْغَبُ مُعْدِمٌ إلى مُعْدِمٍ»[1].

(فلا تردني من سني مواهبك خائبا يا كريم يا كريم يا كريم برحمتك يا ارحم الراحمين) فإذا كان هذا حالي بين يديك يا ربي من الخضوع والذل والتوجه لك لا لغيرك فلا تحرمني من ألطافك الرفيعة ومواهبك الجليلة على عبادك، ولا تخيبني؛ لأنك الذي لا يخيب من دعاه، ولا يقطع رجاء من رجاه، فتفضل علي بإعطائي سؤلي وقضاء حوائجي؛ لأنك أهل الكرم والجود، فإني أعلم أنّ رحمتك تسعني كما وسعت غيري يا ارحم الراحمين .(وصلى الله على خير خلقه محمد وآله أجمعين).

تم بحمد الله في الثالث من شهر رمضان ١٤٣٢ هـ

(١) الصحيفة السجادية: الدعاء الثالث عشر .

الخاتمة

وجد البحث أن الإمام (عليه السلام) كان دقيقا في اختيار الألفاظ التي توحي بالمعنى المراد، وتعبر عن المراد بلغة عذبة ذات جرس موسيقي رقيق يخف على السمع وتستأنس به النفوس.

اتضح من البحث أنّ الإمام علي (عليه السلام) كان عارفا بأهمية الاستعارة وأثرها الكبير في المعنى، لذا جاءت فقرت دعاء الصباح محمّلة بالاستعارات الراقية، التي طبعت كلامه (عليه السلام) بطابعه المتميز، فكان غاية في الروعة والإتقان. لو القينا نظرة فاحصة على استعارات الإمام (عليه السلام) وجدناه يستعمل الألفاظ الموضوعة للأمور المحسوسة في الدلالة على الأمور المعنوية ـ وهذا هو أسلوب القران الكريم ـ مستفيدا بذلك من الطاقة الإيحائية لهذه الكلمات، حيث تجعل المتلقي يحس بالمعنى اكمل إحساس، وتصور المشهد للعين وتنقل الصوت للأذن، وهذا هو السرّ في جمال التعبير الاستعاري في دعاء الصباح .

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .

٢. إرشاد القلوب: الحسن بن أبي الحسن الديلمي، دار الشريف الرضي للنشر، ١٤١٢ هـ.

٣. أضواء على دعاء الصباح: عز الدين بحر العلوم، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع- لبنان، ط١، ١٩٩١م.

٤. أعلام الدين: الحسن بن أبي الحسن الديلمي، مؤسسة آل البيت (ع) - قم، ١٤٠٨ هـ.

٥. الأمالي: الشيخ الصدوق، المكتبة الإسلامية، ١٤٠٤ هـ.

٦. بحار الأنوار: العلامة المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت لبنان، ١٤٠٤ هـ.

٧. بلاغات النساء: ابن طيفور، أحمد بن أبي طاهر، دار الشريف الرضي – قم.

٨. دعائم الإسلام: نعمان بن محمد التميمي المغربي، دار المعارف - مصر، ١٣٨٥ هـ.

٩. دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط٥، ٢٠٠٤م.

١٠. رحلة في الآفاق والأعماق شرح دعاء كميل: حسين انصاريان، ترجمة: كمال السيد، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٤م.

١١. عدة الداعي: أحمد بن فهد الحلي دار الكتاب الإسلامي، ١٤٠٧ هـ.

١٢. علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني: د. بسيوني عبد الفتاح بسيوني، مكتبة وهبة – القاهرة، ١٤٠٦هـ.

١٣. الفروق في اللغة: أبو هلال العسكري، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع- القاهرة، ١٩٩٨م.

١٤. الكافي: ثقة الإسلام الكليني: دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٦٥ هـ. ش.

١٥. العين: الخليل بن احمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام، دار الحرمين - العراق، د. ت.

١٦. لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري، من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد –

المملكة العربية السعودية، د.ت.

١٧. اللهوف: السيد علي بن طاوس الحلي دار العالم - طهران، ١٣٤٨ هـ. ش.

١٨. مجمع البحرين: فخر الدين الطريحي، تح: أحمد الحسيني، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان، ط١، ٢٠٠٧م.

١٩. مجمع البيان في تفسير القرآن: الفضل بن الحسن الطبرسي، دار الأسوة للطباعة والنشر ط١، ١٤٢٦ هـ.

٢٠. مستدرك الوسائل: المحدث النوري، مؤسسة آل البيت (ع) - قم، ١٤٠٨ هـ.

٢١. مع الإمام علي في دعاء الصباح: ناجي صبرا، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع- لبنان، ٢٠٠٦م.

٢٢. مفاتيح الجنان: الشيخ عباس القمي، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، ط٢، ٢٠١١م.

٢٣. مفتاح الفلاح في شرح دعاء الصباح: السيد محمد كلانتر، مطبعة المعارف- بغداد، ١٩٩٨م.

٢٤. المفسر ومستويات الاستعمال اللغوي: د. علي كاظم اسد.

٢٥. من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي -

قم، ١٤١٣ هـ.

٢٦. من هدى القران: السيد محمد تقي المدرسي، مكتب السيد المدرسي، ط١، ١٤٠٦هـ.

٢٧. مناقب آل أبي طالب: محمد بن شهر آشوب المازندراني، مؤسسة العلامة للنشر - قم، ١٣٧٩ هـ.

٢٨. الميزان في تفسير القران: محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٢٩. نهج البلاغة: الرضي، تح: صبحي الصالح، دار الهجرة للنشر– قم، د. ت.

٣٠. وسائل الشيعة: محمد بن الحسن الحر العاملي، مؤسسة آل البيت (ع) - قم، ١٤٠٩ هـ.

٣١. مفهوم النظم عند عبد القاهر (بحث) مجلة فصول، مج ٥، ع١، ١٩٨٤.

فهرس المحتويات

المقـدمـة ١١

التمهيد ١٥

- الدعاء أهميته وقيمته في الإسلام: ١٥

- الدعاء إعلانٌ لحالة الارتباط باللّه في كل الأحوال: ١٨

- الإخلاص في الدعاء مقدمة للقبول:. ١٩

- الدعاء مع الوثوق بعطاء اللّه: ٢٢

- حضور القلب شرط في قبول الدعاء:. ٢٤

- الإلحاح على اللّه في الدعاء: ٢٤

- الدعاء يصنع الروح المتواضعة: ٢٥

- الدعاء يعني الحركة: ٢٦

- نص الدعاء: ٢٧

المبحث الأول:

مفاتيح الإجابة، الحمد والثناء بذكر صفات الله والصلاة على النبي والآل ... ٣١

المبحث الثاني:

قَرَعْتُ بابَ رَحْمَتِكَ ... ٥٥

- الشاب البكّاء.... . ... ٦٤
- قصة نافعة. ٧٥

المبحث الثالث:

وَبابُكَ مَفْتُوحٌ ... ٨١

الخاتمة ١١١

المصادر والمراجع... . ... ١١٣

فهرسُ المحتويَات ١١٧